ميزان الحب

بين الخليل وربه

حسـن عابـد

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب : ميزان الحب بين الخليل وربه

المؤلف : حسـن عابـد

الطبعة : طبعة أولى / 1431هـ - 2010 م

الناشر : مكتبة جزيرة الورد

رقم الإيـداع :

مكتبـة جزيرة الورد - القاهـرة / ميدان حليـم

خلف بنك فيصل شارع 26 يوليو من ميدان

الأوبرا

الإهـداء

إلى خليل الرحمن الذي ضحى بكل ماعدا الله في سبيل إرضاء الله..

إلى الفتى الذي ارتضى لنفسه الحرق بالنار في مقابل تكسيره للأصنام!!..

إلى الفتى الذي واجه النمرود الذي ملك الدنيا بحذافيرها.. مخاطرًا بحياته ومعرضًا نفسه للتنكيل والتعذيب الآكد المؤكد.. ناهيك عن التمثيل به حيًّا أو ميتًا بإشارة واحدة ممن ملك الدنيا وهو ماثلٌ أمامه منتصب القامة وحيداً.. وهذا الآخر جالس على كرسي عرشه بين مَلإه وحاشيته!!..

إلى الرجل - الشيخ الطاعن في السن - الذي ألقى بزوجه وابنه الرضيع - الذي رُزقَه على كبر، وعلى اشتياق منه للذرية - في فلاة لا زرع فيها ولا ماء، ولا ونيس ولا أنيس، ولا مأوى ولا دار.. طاعة لله.. دون تردد أو مداراة!!..

إلى الشيخ المُسِنّ الذي أوشك أن يودع الحياة الدنيا.. فقام عازماً ذبح ولده الفتى الوحيد دون تردد أو تسويف طاعة لله عبر رؤيا منامية رآها.. فقام ينفذها خوفًا على نفسه وولده من غضب الله.. وكان هناك من التبريرات ما يثنيه عن ذلك من غير لومٍ ولا عتاب!!..

إلى الولد البار الذي أطاع والده وأسلمه نحره ورقبته لينفذ فيه الذبح دون تروِّي قائلاً له: يا أبت افعل ما تؤمر!!..

إلى الولد المطيع البار الذي كلفه أبوه بمشاركته في بناء البيت العتيق.. من جمعٍ للحجارة ورفعها بساعديه لأبيه البنَّاء دون تهاون أو تسويف أو تمارض أو اعتراض!!..

إلى الأم المرضع الصابرة، والزوجة الضعيفة التي تعودت حياة الرفاهة والنعومة في قصور مصر الملكية.. ثم ترضى بسكنى الصحراء القاحلة مع رضيعها دون تبرم أو تذمر أو اعتراض.. راضية بقضاء الله وقدره قائلة لزوجها - حين قفل عائداً تاركاً إياها وطفلها - في ثقة وإيمان عظيمين: إنَّ الله لن يضيعنا!!..

حسن عابد

* * *

المقدمـــة

أخي القاريْ.. إنها قصة الخليل (على نبينا وعليه الصلاة والسلام).. أقدمها لك من زاوية لم يسبق أن تعرض لها كتابٌ من قبل.. أو أمسك بأهدابها قلمُ دارسٍ.. أو فِكْر مُفَكِّر.. إنما هىَ نفحاتٌ وتوفيقٌ من الله عزَّ وجَلَّ.. والله يتفضل بفضله على من يشاء من عباده وفي أىِّ الأزمان قدَّرَ وشاء!!.. سبحانه وتعالى.. منه البدءُ.. وإليه المآب..

من هو الخليل (عليه السلام) ؟.. هُوَ (كما يروي لنا الحافظ ابن عساكر في تاريخه) إبراهيم بن تارخ بن ناحور ويمتد أصله إلى أرفخشذ ابن سام بن نوح (عليه السلام).. وأمُّه (أميلة) يتصل نسبها بنسب أبيه عند أرفخشذ بن سام بن نوح (عليه السلام).. وُلِد ببلدة (فدام آرام) بأرض بابل (العراق حالياً) وكان يكنَّى بـ (أبي الضيفان) لشدة كرمه.. وكان يحترف التجارة.. متصفاً بدثامة الخلق والأمانة.. مع الصدق في القول، ولين الجانب، وحسن المعاملة.. وكان مولده في زمن النمرود ابن كنعان.. وكان ملكا ظالما غاية الظلم.. طاغيا غاية الطغيان.. وقد بلغ به الغشم منتهاه..

وفي العام الذي وُلد فيه إبراهيم (عليه السلام) ظهر نجمٌ في السماء شديد السطوع حتى أن ضوءه طغى على ضوء الشمس والقمر.. فأفزع ذلك أهل ذلك الزمان.. وفزع النمرود فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك، فأخبروه بأنه سيولد في هذا العام مولود من رعيته، ويكون زوال ملكه على يديه!!.. فأمر بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين.. فكان مولد إبراهيم الخليل.. فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الكفار والفجار.. وأنبته الله نباتًا حسنًا حتى كان من أمره ما سوف يعرضه لنا هذا الكتاب..

تزوج بـ (سارة) وكانت عاقراً.. ودخل بـ (هاجر) المصرية فولدت له (إسماعيل) - جد النبيِّ محمد ◘ - وهو في الثمانية والتسعين عامًا من عمره.. ثم بعد ذلك بثلاث عشرة سنة ولدت له سارة (إسحاق) الذي أنجب بعد ذلك (العيص) و(يعقوب) أبا أنبياء بني إسرائيل..

كيف كانت هيئته؟.. ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ◘ في حديث طويل: ... ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شبهًا صاحبكم▬ يعني نفسه ◘ "... وفي صحيح البخاري حديث آخر نصه: قال ◘ : أمَّا إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعدٌ آدم " يعني أسمر " على جملٍ أحمر مخطوط بخلبة كأني أنظر إليه انحدر في الوادي▬..

كيف كان موته؟.. كان إبراهيم يضيف الناس، فخرج يومًا يلتمس إنسانًا يضيفه فلم يجد، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائمًا فقال: يا عبد الله.. ما أدخلك داري بغير إذني؟!!.. قال: دخلتها بإذن ربِّها، قال: ومن أنت؟! قال: أنا ملك الموت، أرسلني ربِّي إلى عبدٍ من عباده، أُبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً.. قال من هُوَ؟! فَوَالله إن أخبرتني به ثُمَّ كان بأقصى البلاد لآتينَّه؛ ثُم لا أبرح له جاراً؛ حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا! قال: نعم.. قال: فبما اتخذني ربِّي خليلاً؟.. قال: بأنك تعطي الناس ولا تسألهم.

كيف كان حاله مع الله؟!!.. عن ابن أبي حاتم عن أبيه... عن إسحاق بن يسار قال: لماَّ اتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً ألقَى في قلبه الوجل حتى إن كان خفقانُ قلبه لَيُسْمَع من بُعد كما يُسمع خفقان الطير في الهواء..

قال عنه المولى عز وجل:{ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (37) } [النجم: ٣٧] !!

.. كان وفيًّا مع الله.. مستوفيًا جميع ما أُمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشُعبِه؛ وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل.. ولا يُنْسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصِّغار..

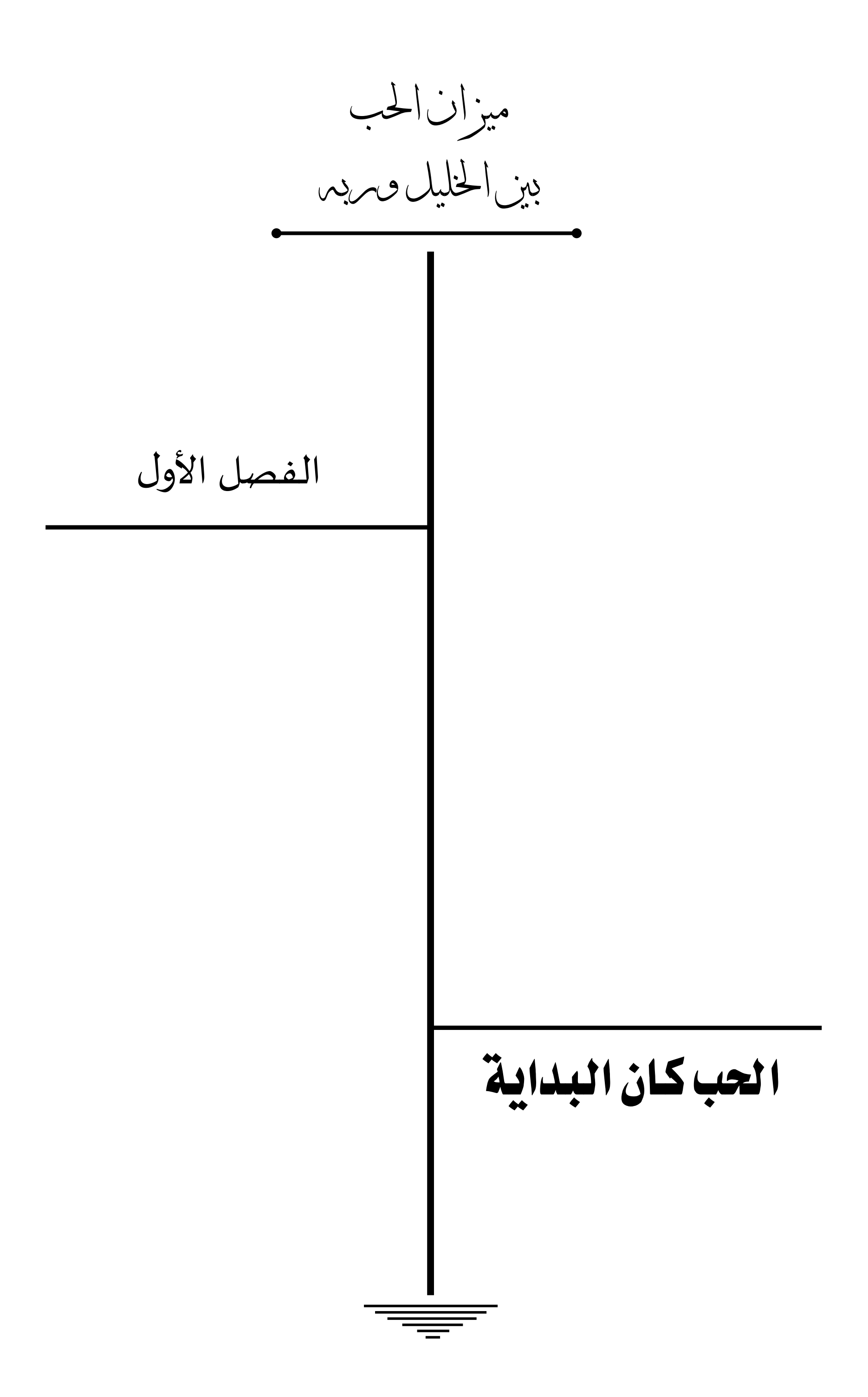
وعن ابن عباس في قوله تعالى:{ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) } [البقرة: ١٢٤]

قال: ابتلاه الله بالطهارة. خمسٌ في الرأس، وخمسٌ في الجسد... في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الرأس... وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء. (من صحيح الحديث في مسلم وأبو داوود والترمذي وابن ماجة وأحمد بروايات متعددة عن ابن عباس والسيدة الفضلى أم المؤمنين عائشة)... والمقصود: أنه (عليه السلام) كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله

عز وجل وخشوع العبادة عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين.. وصدق الله العظيم:{ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (37) } [النجم: ٣٧].

. فهو أشرف أولي العزم بعد محمد ◘ وهو الذي وجده (عليه السلام) في السماء السابعة مسندًا ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة ثُمَّ لا يعودون إليه.

* * *


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل الأول
الحب كان البداية

الحب كان البداية

أخي القاريء: نحن الآن نقترب من حدود مملكة بابل التي يحكمها النمرود بن كنعان بن كوش بن سام؛ وهو (كما يذكر مجاهد وغيره من علماء النسب والتأريخ) أحد ملوك الدنيا (فإنه كما ذكروا: قد ملك الدنيا أربعة - كلٌّ في زمانه - " اثنان مؤمنان " وهما: ذو القرنين وسليمان؛ و" اثنان كافران " هما: النمرود وبختنصر ".. وهذا الملك الذي نحن قاصدون بلاده؛ قد استمر في ملكه أربعمائة سنة، وقد نصَّب نفسه ربًّا على الناس؛ وعاث في الأرض فساداً، وطغى فيها ظلما وتكبراً، وبغى وعتا وتجبَّر، وآثر ملك الدنيا، والحياة الدَّانية على الآخرة.. وكان منكراً للبعث والحساب.. غرته قوة بنيته، وماآتاه الله من الملك.. فنسى الموت.. ونسى الإله الخالق.. وساد بطغيانه على الجميع.. فانظر معي وترقب..

نحن نتحدث ونقترب من حدود بلاده التي تمركز فيها.. وها نحن نزيد اقترابا.. وها نحن نجتاز هذه الحدود إلى داخل البلاد وتسوقنا أقدامنا إلى إحدى بلاد هذه المملكة الواسعة الرحيبة..

ها هي بلدة " فدام آرام " من مملكة بابل التي كان أهلها ينعمون براغد العيش ويتنعمون بسابغ النعم ويتفيئون وارف ظلالها؛ كان يتربع على عرش مملكتهم حاكم طاغ يعج نظام حكمه بالظلم للرعية والضلال المتعجرف.. فلم يحكم بين الناس بالسوية؛ ولا يحسن لهم العطية؛ بل كان عليهم طاغ، وعلى زمام الأمر فيهم محنك واع، ولترسيخ حكمه وسيطرته على الجميع راع - فأعانهم على التخبط فيما بينهم في دياجير الظلام الذي أسدله عليهم - ليضمن لنفسه دوام البقاء والسيطرة - فقبلوه طواعية دون تفكير أو روية، فتردوا في مهاوي الضلالة، ودياجير الظلام والجهالة، وتابعوه في طريق الغواية.. فنصب نفسه عليهم إلها؛ ونصب طواغيت لحكمه سماهم " كهنة "؛ ينقلون إليه أخبار الرعية، وأوحى إليهم بصناعة الأصنام.. ينحتونها بأيديهم من الحجارة والصخور ويبيعونها للناس ليتخذونها أربابا ويتعبدونها آلهة، وينزلونها منازل الوسائط لدى الكهان الموكلين بشئونها، والراعين لأمورها؛ تقربا إلى الملك الإله.. وتعود الناس على ذلك وورَّثوها معتقدات لأجيالهم جيلا من بعد جيل يتعبدونها من دون الله خالقهم، وخالق ما يصنعون وما يعبدون، ومن هم عليهم مُتَأَمِّرُون، ومن هو على حكمهم قائم يصب على من لم يطعه العذاب الهون!!!!!

في مثل هذا الجو المفجوج بالشرك، المكتظ بالغواية، الممزوج بالتيه في دهاليز الغباء، واضمحلال الفكر، وضياع العقول، وطمس القلوب، وعمه الأفئدة، وغياهب الجهالة.. وتفشي الظلم والضلال.. ولد إبراهيم الخليل كامل العقل، ناضج الفكر، سليم القلب، سوى الفطرة، حنيفا عن الضلال الذي يحيط به؛ لائذا بالله موحدا إياه لا يحيد عن عبادته ولا يفارق ذكره لسانه وقلبه.. (إنه الخليل.. أبو الأنبياء والمرسلين) ؛ إنه الحب.. بل قل الخُلَّة.

* * *

وصف الخليل في ميلاده

وُلِد الخليلُ محْبــوبـًا	:::	**للـرَّبِّ كان مطْـلـوبـا**
فالعقلُ فيه ميزا نٌ	:::	**لــلَّـهِ يَحْــيا أوَّابـا**
والقلبٌ بيْن جنْـبَيْــه	:::	**بألكَشْف يُبْدِى أسْـبـابـا**
بـالـنَّبْض يَشْدو توْحيدا	:::	**في الجسم يَـسْرِى وَثَّابـا**
بالـذِّكـر كـان أوَّاهًـا	:::	**بالْهَدْيِ كان مـوْهُـوبـا**
فـالقـلبُ كـنْزُ أكْـنازٍ	:::	**لـلـَّه كـان مَـرْبُـوبا**
كنزٌ أحاطَ أكنازًا	:::	**والجَـْنـبُ يحْوِى أجْـنابا**
لـلأنـبياء جَمْعُهمــوا	:::	**كان الأبُ لـهُــمْ بـَابا**

* * *

الخليل المحب.. ومعجزة الرب

نشأ إبراهيم الخليل - ﷺ - محاطا بعناية الله - ﷻ - وحفظه - ينبض قلبه حبا لله فيضخ الدماء ذكراً وتوحيدا في سائر جسده قلبا وقالبا، ظاهرا وباطنا؛ فقد أبلغه الله مرتبة الخُلَّة له سبحانه وتعالى؛ بعد أن آتاه رشده.. وكيف لا وقد جعله مستودعاً للأنبياء من بعده إذ أودع صلبه ذراريهم؛ فلم يأت نبى بعده إلا كان من نسله - عليه السلام - وقد كان حبه لله يشغل كل كيانه وتفكيره حتى تخلل سائر عناصر تكوينه ماديا ومعنويا؛ فقد كان قلبه مفعما بحب ربه؛ حيث فطره الله على إيمان راسخ في قلبه، وثقة بالغة ويقين كامن في وجدانه بأن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلقه وخلق كل شيء.. وهو وحده الذي يميت الأحياء بقدرته؛ وأن ما أوحاه إليه ربه من بعث الناس يوم القيامة للحساب فيدخل أهل الضلال نار جهنم للعقاب، ويُنَعِّمُ أهل الإيمان في جنات رضوان.. كان يثق بأن هذا الوحيُ هو الحق اليقين...

* * *

دلال الخليل على ربه.. وطمأنة الله لقلبه

شاغلت إبراهيمَ قدرةُ الله - ﷻ - ومقدرتُه على البعث ردحاً من الزمن؛ يتعجب إيَّاها، ويتمنى لو أن الله يجريها أمامه يوما.. إرضاءً له وتبصيرا.. وزيادة في إيمانه وترسيخا.. وفي ربه ثقة ويقينا.. فيطمئن قلبه.. ويهدأ انشغاله بهذا الإعجاز..

وقد كان.. فقد حكى لنا القرآن العظيم هذا الأمر بما لا يترك لسائل سؤالا؛ مظهرا مدى الحب الكائن بين الخليل وربه؛ وماكان في إبراهيم الخليل من دلال على خالقه؛ إذ كان يخلو بنفسه إلى الله كثيرا وفي إحدى خلواته إذ كان مستغرقا في تفكيره متأملا في عجيب قدرة الله القادر في معجزة البعث بعد الموت.. إذ به يرفع يديه سائلا مولاه وخالقه عن معجزة إحياء الموتى في مناجاة حب وقدسية.. فلم يَرُدّ اللهُ له مطلبا.. بل أجرى إجابة المعجزة على يديه يقظة، عيانا بيانا؛ غير إيحاءٍ، ولا إخبار، ولا تشبيه، ولا ضرب أمثال.. ولك أن تتخيل عاطفة الموقف وحنو المناجاة بين الخليل وربه إن وعيت بعين قلبك وصادق بصيرتك هذه الصورة الرائعة حقا التي يصورها لنا القرآن العظيم:

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260) } [البقرة: ٢٦٠].

ولك أن تعرف من هذه المناجاة كم كانت درجة قرب إبراهيم من ربه؛ وعمق مشاعره نحو الخالق جل شأنه إذ كان كثير الصلاة.. دائم التفكير وما كان ليخلو من صلاته إلا ليدعو الناس بدعوة التوحيد والإيمان.

وكان الحمَاَمُ يأوي إلى ساحة بيت إبراهيم يلتقط عنده رزقه - طعاما وشرابا - فقد كان إبراهيم يدعى " أبا الضيفان " لشدة كرمه، وحسن ضيافته، واعتياد الأضياف عليه - يأكلون ويشربون ويستريحون - وكان الطير يأوي إلى بيت الخليل، ويتنقل فيما بين البيت وفنائه وحدود مصلاه (الذي حدده بسور غير مرتفع جاعلا إياه قبلته عند صلاته) ؛ وكان الحمام يحط على السور- أحيانا في تنقلاته.. حائما تارة، ومهفهفا جناحيه طوافا فرحا تارة أخرى،

ومرفرفا إياها ليعلو ثم يهبط ليحط في أي مكان شاء في أمان واطمئنان؛ مَرِحًا مسرورا؛ ودون خوف - إنه في جوار خليل الرحمن؛ لاينغصه شيء، ولا يقلقه تفكير (حَبٌّ وطعام متوافر، وشرابٌ عذبٌ غيرُ آسن، ورجلٌ رحيم كريم ذو عاطفة وحنوٍّ عظيمين.. لا يزجر، ولا ينهر، ولا يُنَفِّر.. وكان الطير والحمام يألفه في حنان متبادل منقطع النظير..

كان الحمام يحط أمامه وحوله.. وأحيانا على قدميه.. وهو يمد يديه الطيبتين الكريمتين إليه ملاعبا.. ويربِّت في حنوٍّ بليغ على أجنحته مداعباً، ويمسح على رأسه وعنقه في حنان ورحمة وتحنان..

دعا الخليل أربعة من الحمام في ساحة بيته.. فلبى الحمام النداء مستسلما طائعا دون إجبار أو إكراه أو استكراه، وحط بين يدي الخليل في حنوٍّ واستغراق وارتياح.. أخذ الخليل الحمام (واحدة تلو الأخرى) وذبحه؛ ثم قطعه أجزاءً؛ ثم فرَّق الأجزاء على قمم الجبال حول بيته.. ثم رجع إلى بيته منشغل الفكر متعجبا لما يحياه من عجيب موقف..

من بعد فينة من الوقت والتأمل والاستغراق مع عظمة قدرة الله صوَّب وجهه ونظَرَه - بل قل كلِّيَّتَه - إلى قمم الجبال التي استقرت عليها أجزاء الحمام المقطع وهو مستغرقا مع قدرة الله وعظمته؛ ثم دعا الأجزاء إليه.. فتطايرت من فوق قمم الجبال، وتلاءمت وتلاحمت أجزاء كل حمامة (لايخطيء بعضُها بعضا) وآتينه جميعا.. سعياً من الموت.. صحيحة سليمة كما أنها لم تكن ذبحت وماتت ومزقت أو أصابها أذىً أياً كان من قبل.. وطمأن الله قلب الخليل الذي كان يبحث ويسأل عن الطمأنينة.. فعادت إليه نفسه هادئة مطمئنة بفضل الله ومشيئته.. تُرى؟!!.. كم يحب اللهُ إبراهيم؟!!.. إنه الحب الأتمّ.. إنها الخُلَّة!!..

* * *

أبو الذبيح... يذبح الطير

أقام الله إبراهيمَ في جمعٍ ::: فسادُ الأمر والمُعْتَقَدِ سيمتهُ

وإبراهيمُ في البُنيان مُكتمَلٌ ::: حصيفُ العقل. البُرْهانُ حُجَّتُهُ

عَميقُ الفِكْر في آيات خالقه ::: ونيْلُ القرب بالإقبال غايتُهُ

خليلُ اللـَّه للرحمن منقطعٌ ::: ولا تخلو من الأذكار لهْجته

عن الخلق - بعيدًا - حيثُ خَلْوَتُهُ ::: يُزكِّ النوُّرُ فوق النور مهجتَه

ويبقى في صلاةٍ مِنْه دائمةٍ ::: تبَشِّرُ منه – بالتوحيد - دعْوَتَهُ

يُناجي اللهَ في الإصباح والليل ::: وكشفُ السِّرّ في الآيات بُغيتُه

إذاصلىَّ يَتيهُ الرُّوحُ بالْوَصْلِ ::: يُغَشَّى القلبُ بالنُّور، ومُهْجتُه

فبالتسبيح والتَّكبير والذِّكر ::: وبالحمد يُلَقَّى الجسمُ طُعْمَتَه

بِسِرِّالله في لُقْياهُ إذْ يخْلو ::: تُضاءُ من جمال الله خُلوتُه

وناسوتٌ تَغشَّاهُ جلالُ اللـَّ ::: ـه مُرْتجِفٌ. تهاوَتْ عنْه بِنْيَتُه

يناجي اللهَ.. والأعضاءُ خاشعةٌ ::: ونور الله قد فَجَّتْ حقيقَتُه

يُريه اللهُ ملكوتَ السما واتِ ::: كذا الأرضِ.. لِتَقْوى فيه حُجَّته

ولمْ يَبْقَ سِوَى البَعْثِ يُؤرِّقه ::: فأمْرُالبعث بعد الموْت عُجْبتُه

وَذَا الأمْرُ بوَصْل الْفِكْر قد حارَ ::: بِه العقْلُ.. وفي الإجْلاءِ راحتُه

فنادَى اللهَ في سؤلٍ عن البعث ::: يُجلِّيهِ.. فَسِرُّ البعْث طُلْبَتُه

ولبَّى اللهُ نجْواهُ ليُرضِيَهُ ::: بأمرٍ منْه كَيْ ترتاحَ مُهْجَتُه

بِذَبْح الطَّيْر والتَّقْطيعِ أجْزاءً ::: وَيَدْعوها.. فَتَأْتيه.. تُثَبِّتُه

عاش إبراهيم هذه المعجزة العظيمة وحده؛ وهو يرى مايرى من أحوال قومه المتردية في الشرك والكفر والضلال.. وقد كان يؤلمه ويحزنه ما كان يراه من انغماس قومه في الجهالة والظلام وسفاسف الاعتقاد واضمحلال التفكير.. فقد نشأ في أحضان قوم ينحتون الأصنام من الحجارة والصخور والأخشاب ثم يتخذونها آلهة يعبدونها، ويشيدون لها المعابد ويجملونها بأرقى ما توصلت إليه عقولهم، ومنتهى ما نتج عن إعمال أذهانهم وتحفيز أفكارهم من ابتكارات فنية تأخذ بالألباب وتتيه بالعقول؛ وكانوا يقدمون لها القرابين، ويتفننون في ابتكار الطقوس لها والصلوات معتقدين أنها آلهة تنفع وتضر؛ وكانوا يقيمون لها الأعياد ويتفننون في أساليب إقامة الاحتفالات لتمجيدها وتقديسها أيما تقديس..

وكان عليهم في ذلك من الكهنة عينٌ ورقيب.. فمن يوصَمُ بالتقصير؛ أو التهاون والتأخير؛ تتوالى عليه المحاذير!!.. فيُهَدَّد باللَّعنات.. وتتَنَزَّلُ عليه النَّكَبات.. وَتَترادفُ عليه المصائبُ والملمَّاتُ.. وتوصَدُ في وجْهِه أبوابُ تَنَزُّلِ الرَّحَماتِ.. بل ويُنْأى بهِ عمَّا يُوَصِّلُ إليْها منْ سُبُلٍ وطُرُقاتٍ!!.. ويمثل الكهان في ذلك الحائل المنيع، والعقبة الأكيد الأكود من دونه.. فلا يقترب من المعبد، ولا يدنو من بابه فضلا عن ولوجه!!.. فيُحرم من التقرب إلى الآلهة ليبدى الاعتذار، ويجأر بين يديها بالتوسل والابتهال؛ مُبْديًا النَّدم على التقصير الذي منه كان!!.. راجيًا منْها العفْوَ والرِّضا، والصَّفْحَ والْغُفْران.. فيَحْيا المسكين من الكهان منبوذاً، ومن الناس مهْجوراً حتَّى تُرفَعُ عنه نِقْمةُ الغضب، ويحِلُّ عليه رضا الآلهة وكبيرهم النمرود.. الذي ترفع إليه من الكهان التقارير؛ التي على ضوئها يجري على الناس المقادير؛ فيحكم على هذا.. ويأمر لهذا.. ويعاقب هذا.. ويعفو عن هذا.. فيكون الأمر ومنتهاه في يد الكهان وعلى رأسهم الكاهن الأعظم.. فالكاهن والكهان هم الوساطة بين الناس والآلهة ونمرود الزمان صاحب الجاه والسلطان.. فَتُوقَّعُ عليه من الكهنة العقوبات.. وتفرض عليه الإتاوات.. وتتضاعف القرابين.. وتكثر عليه المخالفات.. وتزيد عليه ساعات الخدمة والسخرة أزمانا ساعات وساعات.. فيرهق المسكين.. ويندم.. وليس هنالك سامع أو معين..

لذلك.. فالجميع ملتزم بالطقوس والقرابين في مواعيد بتقنين.. وينشط كلٌّ في إعداد لوازم الاحتفالات كلما حان لها الحين.. ويتقرب كلٌّ إلى الكهان؛ ليُسْمَحَ له بالوقوف بين يدي الآلهة يقدم لها الولاء والطاعة والخضوع.. ويذرف عند أقدامها الغالي من الدموع..

من أجل ذلك.. فالجميع رهن أمر الكهان.. فلا ترى العيونُ إلا ما يُسمح لها به أن تراه.. ولا تسمع الآذان إلا ما يرغب الكهان لها سماعه.. ولا تنطق الألسنة بكلام إلا ما يرضى به الكهان.. وكيف لا؟! وهم عيون الآلهة، وهم الوساطة بين الناس وبين النمرود صاحب الحكم والجبروت..

كبر الفتى وشبَّ عن طوقه - وهو يراقب هذا المجتمع غير السوي في عبادته وتصرفاته اليومية - يلفه الحزن والحسرة من كل جانب؛ ومما زاد في حزنه أن أبا له يدعى (آزر) - و" آزر " هذا هو عمّه حيث جرى العرف على أن يطلق على العم اسم الأب، وهو عرف لازال قائمًا حتى يومنا هذا وخاصة في المناطق الريفية، حيث أن المعروف عن أهل الريف تمسكهم بالأعراف والأصول القديمة المتوارثة عبر العصور على مدى التاريخ، أما أبوه نسلا ونسبا فهو كما ثبت لدينا عن جمهور أهل النسب، ومنهم ابن عباس " حبر الأمة " أن اسم أبي إبراهيم " تارح " وأهل الكتاب يقولون " تارخ " – و(آزر) هذا كان صانعا ونحاتا ماهرًا للأصنام - يصنعها ويتفنن في إجادتها وإتقانها ويبيعها ـ فتروج صناعةً وتجارة، ويروج معها الظلم والضلال.. ويستشري بسببها جلُّ ألوان وصور الفساد المألوفة والمبتكرة ابتداعًا لإذلال البشر وإخضاعهم للحكام الطاغين..

وبدأ إبراهيم أول مابدأ بدعوة (أبيه) آزر.. فهو أحق من يبدأ بدعوته من الناس.. وكان آزر ممن يمهر في نحت الأصنام.. وكان يصنعها بيديه.. ثم يتخذها آلهةً يعبدها ويدعو إليها.. فكانت هذه مهنته؛ صناعة وتجارة الأصنام؛ يروج لها.. ويعبدها.. فيروج بذلك للضلال والكفران.. ويجني من وراء ذلك المال.. ويكتسب المكانة بين قومه والكلمة المسموعة لدى السلطان.. فهو بالنسبة لإبراهيم أَوْلى الناس بالنصح والدعوة للهداية.. وفي هدايته الخير الكثير للدعوة حيث يتحول من داعية إثم وضلال إلى عون على نشر دعوة التوحيد في ربوع الأوطان..

ويذكر لنا القرآن بأوضح بيان ماكان بين إبراهيم و(آزر) من حوار في سبيل دعوته للهداية إلى سبيل الرشاد والعرفان لله الخالق الديان.. فيقول:

{ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) } [مريم: ٤١ - ٤٨].

الله!!.. الله!!.. لهـذا الأدب الأجَـّم.. والخُلُـقِ الأَجَـلّ.. وهذه الـرحمة الأعَمّ... وكيف لا؟!! وهو من هو؟!!... إنـه خليل الرحمن الملقب بـ " أبي الضيفان " - و" الأب الرحيم " - إنه إبراهيم (أبو الأنبياء الذي جعل الله من نسله جميع من أرسلهم الله مـن بعده من أنبياء ومرسلين رحمة للعالمين وكان خاتمهم - رحمة الله المهداة، ونعمته المسداة لجميع الخلق الحبيب المصطفى - محمد عليه الصلاة والسلام). انظر وتفحص معي رقة الأسلوب، وألطف العبارات، وانتقاء الحروف، وعذوبة الدعوة إلى الله الرحمن الرحيم.. حتى أنه بعد أن توعده " آزر " وهـدده بالـرجم (قولا كان أو فعلا)، وأظهر الكره له عندما أمره بهجرانه والبعد عنه مليا.. لم يزد على أن قال له بأسلوب يَنمّ عن الحب والرحمة والاحترام: ".. سلامٌ عليك.. سأستغفر لك ربي.. "..

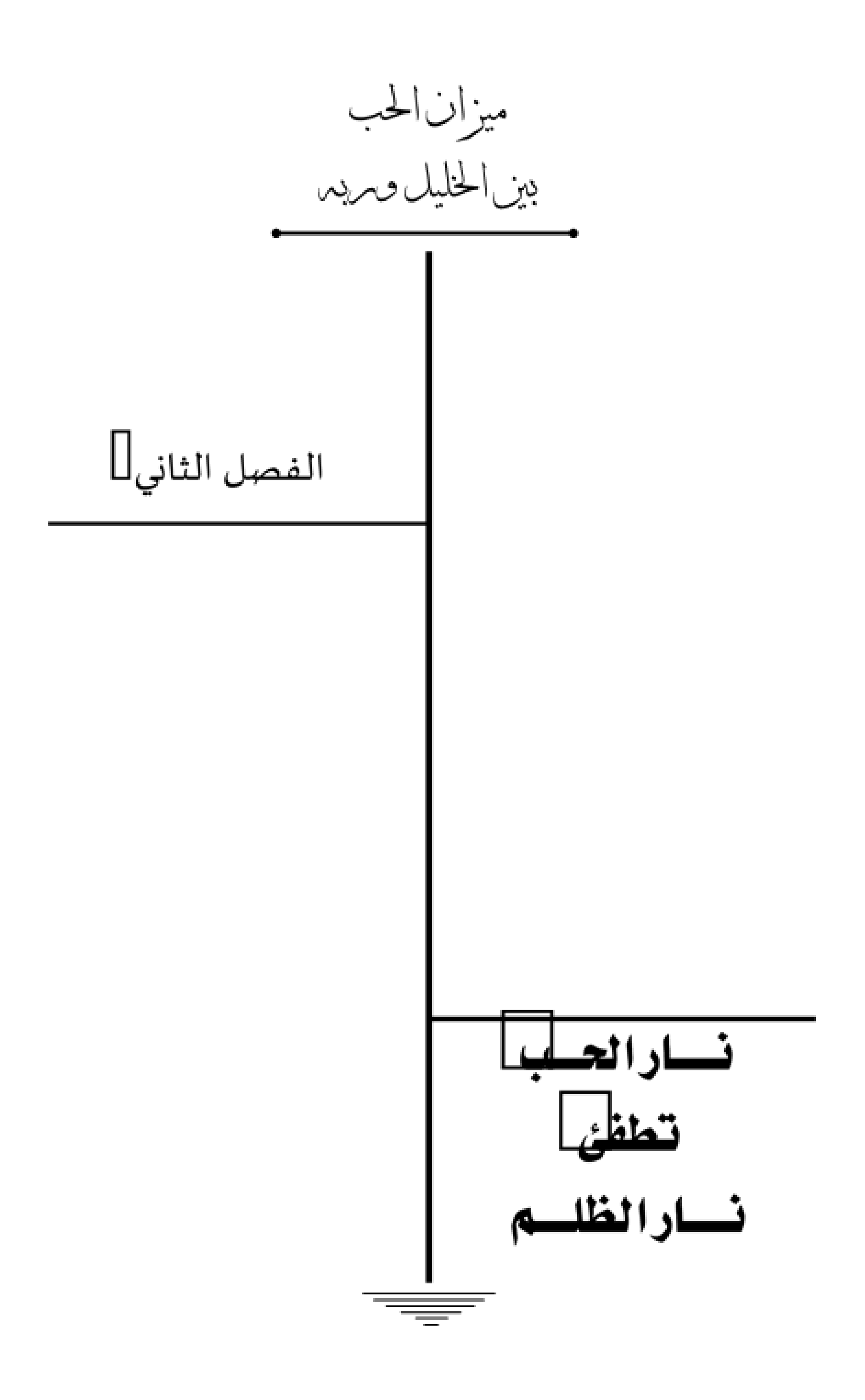
الله... الله... إنها قمة الأدب والرحمة.. إنه خليل الرحمن؛ ميزان الحب بين الرحمن وخلق الرحمن...

بدأ الخليل دعوته بالأقرب إليه.. ولما لم يجد استجابة ممن هو أقرب الناس إليه؛ بدأ بجهر دعوته لقومه حيثما كانوا، وأينما التقى بهم.. في مناظراتٍ يُبَيِّن من خلالها عدم جدوى ما هم عليه، وخوفه عليهم من العذاب الناتج عن غضب الله عليهم إذا استمروا على ما هم عليه.. موضحا لهم نعم الله عليهم السابغة.. وآيات الله الظاهرة في الخلق والتكوين في النشأة الأولى..

ثم إعادته في النشأة الآخرة للعرض والحساب.. ثم الخلود الدائم.. إما في عذاب وشقاء في نار الجحيم للعصاة الضالين.. أو في نعيم وسعادة في جنات النعيم للطائعين المهتدين.. والقرآن العظيم يصور لنا بعضًا من مناظراته بينه وبين قومه.. لا تنم إلا عن حُبٍّ عميق، وخوف شديد، وحرص أكيد على هدايتهم - إنه ميزان الحب بين الخلق وبين الرَّبّ - يقول القرآن الكريم:

{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ(أى تصنعون ظلما وبهتانا وافتراءا؛ لأنهم كانوا يصنعونها ثم يعبدونها من دون الله) إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)} [العنكبوت: 16 - ٢٤].

* * *


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل الثاني
نــــار الحــب
تطفئ
نــــار الظلــم

نـار الحـب تطفئ نار الـظلـم

تعالت أصوات القوم شيئًا فشيئًا حاملةَ التهديد بقتل إبراهيم أو حرقه بالنار قبل أن يميل إليه ويتبعه أحد من الفتيان ويفسد على الكبار راغد عيشهم، وظلال النعمة التي يتفيؤونها.. في مباركةٍ ورضًا من مالك زمامهم (نمرود بن كنعان) حاكم بلادهم (بابل) المستبد بأمره والمسيطر برأيه وجبروت قوته وإحكام سطوته على أرض بابل وما فيها وما عليها ومن عليها؛ وانتقلت الأصوات من الهمس والإسرار إلى الجهر والإظهار.. ولم يأبه إبراهيم بذلك.. فحُبُّه لله أثمن كثيراً من حياته.. وأهم كثيرا من تهديده بالقتل أو الحرق.. إنه الحب المطلق.. إنه خليل الرحمن..

وينقل لنا القرآن الكريم إصراره على الدعوة والمضي فيها دون خوف من نمرود وملئه وسلطانه.. يروى لنا القرآن مناظرات أخرى تحمل الحجج القوية الداحضة لما كان عليه القوم فيقول حاكِيًا لنا مشهدًا عظيما متطورا من مشاهد المواجهة بينه وبين قومه:

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) } [الشعراء: ٦٩ - ٨٣].

وتعلو الأصوات وتتحرق المشاعر اشتعالا في مواجهة صوت الحق الوحيد على وجه البسيطة؛ جدالٌ وعراكٌ متداخلٌ قائمٌ ومتصاعدٌ بين الصوت الأوحد المنادي بالحق، الحريص على هداية الخلق، وبين أصوات كثيرة متداخلة تنطق بالضلال دون أوهى سند من سبب؛ بل هو العناد والخوف على صناعةٍ وتجارةٍ تُجْمَعُ منها الأموال تحت حكم ملك ظالم تَأَلَّهَ عليهم حتى قهرهم فعبدوه من دون الله (ولا حول ولا قوة إلا بالله).

ويتواصل التحدي، ويستمر معه الجدال، وتعلو درجته بين الحق الواضح الجليّ، وبين الضلال الباهت الرديّ.. فينقل لنا القرآن مشهدًا آخر ينبي عن تسفيه إبراهيم لهم ولما هم فيه من إفكٍ وضلال، وتحقير آلهتهم هذه التي صنعوها من الحجارة، ونحتوها من الصخور والأخشاب بأيديهم؛ ثم يتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله الواحد القهار.. فيحكي لنا مناظرةً دارت بين الخليل وبين أقاربه وأترابه صبيحة يوم عيدهم حين أتوه ليصطحبوه حيث أرض العيد والإحتفال الذي كان يقام سنوياً تمجيداً لآلهتهم فيقول:

{ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) } [الصافات: ٨٤ - ٨٧].

.. وهنا بدى عليه اليأس من عظيم جرمهم، وعدم استجابتهم.. فتظاهر بالمرض لكي يعتزلوه ويدبروا عنه (لأنهم كانوا من الذين يخافون الأمراض ويخشون العدوى من المرضى).

{ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) } [الصافات: ٨٨ - ٩٠].

لمْ تُجْدِ الرَّأْفَةُ والليونة في الدعوة مع هؤلاء القوم.. وقلب الخليل يعتصر حزنا غِيرَةً على الرحمن، ويفعم كيانه حُبًّا فوق حُبٌ.. ولا بد من عملٍ يُعايَنُ مِنَ الجميع يُثلج صدره ويحرق أكبادهم، ولعلهم يتعظون ويقتنعون بصدق دعوته.. ويتحققون من تفاهة آلهتهم.. فأضمر في نفسه شيئا لابد فاعله؛ وليكن ما يكون.. (نفذوا تهديداتهم أو لم ينفذوا).. فبعد أن اعتزلوه وانصرفوا عنه إلى عيدهم واحتفالاتهم (فراغ (انصرف) إلى آلهتهم فقال (مستهزءاً):{ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) } [الصافات: ٩١ - ٩٣]

(حيث أشبعهم تهشيمًا وتحطيمًا بِقَدُومٍ كانت في يده كان سبق أن أعدها لذلك).

(وبعد أن عادوا من احتفالاتهم واجهوه بما فوجئوا به مما صنعه بآلهتهم):{ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) } [الصافات: ٩٤ - ٩٨].

وكانت المواجهة الكبرى التي بلغت ذروتها في هذه الصورة الرائعة التي يعجز عن خطها أي قلم، ويعجز عن تصويرها أي رسام.. وقد أجمل لنا القرآن قصة الكفاح هذه منذ أن بدأها بدعوة أبيه (آزر) مروراً بدعوة قومه؛ ثمَّ كيده لأصنامهم؛ وانتهاءً بنجاته من النار؛ امتثالاً لأمر الواحد القهار (سبحانه وتعالى) :

{ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) } [الأنبياء: ٥١ - ٧٠].

تأمل معي ولاحظ درجة غبائهم وعمه قلوبهم المتجلّي في قولهم:{ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) } [الأنبياء: ٦٨]..

فأيُّ إلهٍ هذا الذي يكسَّر ويُقطَّع؛ ثُمَّ هم يحرِّقون من كسَّره انتصاراً لهذا الإله المحطَّم.. يا لتفاهة التفكير!!..

وفي تمام المشهد ونهايته يتجلى العجب العجاب في نصرة خليل ربِّ الأرباب.. إذ أراد القوم أن ينتصروا لآلهتهم المحطمة!!.. فخُذِلوا وانتكسوا على الأعقاب.. وأرادوا أن ينتفعوا من النار بحرق من سفَّه آلهتهم!!.. فانحطُّوا واتَّضعوا.. وأرادوا أن يغلبوا عدوَّهم!!.. فغُلِبوا وقُهِروا.. إعجازاتٌ متداخلة.. متزامنة ومتلاحقة.. أجنادٌ من جند الله الجليل تحيط بالخليل، وتنتصر له من معتقدي الأباطيل!!..

فمن مظاهر الحفاوة بالخليل (عليه السلام) أنه؛ وكما رُوِيَ عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير: أنه عندما وضع في كفة المنجنيق.. جعل مَلَكُ المطر يقول متمنياً: متى أُومَر فأُرسل المطر؟!! (أى ليطفيء النار قبل أن يقذف فيها الخليل).. ولكن أمر الله كان أسرع.. إذ أمر النار: يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم (وهذا أظهر للإعجاز على أعين الأشهاد؛ وفي هذا اليوم الموعود، والمقام المشهود الذي جُمِع له الناس كلهم جميعًا ليسمعوا مقالة إبراهيم، وتسفيهه للآلهة؛ ويشهدوا مصيره إذ يُحَرِّقوهُ في النار ليكون عبرةً لغيره ممن قد تسول له نفسه أن يتبع خطاه..

كما أن جبريل (عليه السلام) عرض له وهو في الهواء (بعد قذفه وقبل أن يصل إلى جوف النار) فقال له: يا إبراهيم.. ألك حاجة؟؟.. فقال: أمَّا إليك فلا!!.. (وهنا تبدو بجلاءٍ ووضوحٍ مدى ثقة الخليل في ربه وعظيم قدرته في إنقاذه دون أية وساطة لأيٍّ من خلقه).

وقال الضحاك: إن جبريل (عليه السلام) كان يمسح العَرَقَ عن وجه الخليل وهو في النار؛ إذ لم يصبه منها شيءٌ غيره..

وقال السُّدِّيّ: كان معه أيضاً ملك الظِّلِّ.. وصار إبراهيم في ميل الحفرة؛ حوله نار وهو في روضةٍ خضراء.. والناس ينظرون إليه (ويظنون ذلك تخيلاً منهم؛ وهو الحقُّ) لايقدرون على الوصول إليه، ولاهو يخرج إليهم.

ولك أن تتصور مدى هول النيران وشدتها من ضخامة ما جمع لها من أحطاب وأخشاب.. فتمعن جيداً المعنى الذي ورد عن المنهال بن عمرو إذ قال: أُخبرتُ أن إبراهيم مكث في النار إمَّا أربعين أو خمسين يومًا.. واصْغِ إلى قول الخليل وهو يصف لنا حاله فيها إذ قال: ما كنت أيَّامًا وليالىَ أطيب عيْشاً إذ كنت فيها.. ووَدَدْتُ أن أعيش حياتي كلها مثل إذ كنت فيها (عليه الصلاة والسلام).. فهل بعد هذه الحفاوة حفاوة!!؟.. إنه إكرام الرحمن لخليل الرحمن!!.. بل قل: إنها الخلة!!..

هكذا بلغت المواجهة ذروتها.. وظهرت معجزة الحب الإلهي للخليل ذي القلب السليم الذي لم ينشغل لحظة بغير الله الذي لا معبود بحق سواه.. ولا تعليق.. ومن أراد الاستزادة.. فعليه بالتكرار والإعادة.. وما التوفيق والهداية إلا بالله..

* * *

نار الحب تحيل النيران أنوارا

أقام القومُ أعيادًا وأفراحًا ::: ليوم العيد.. والجمعُ له سارا

وظلَّ العبدُ للمعبود معتكفًا ::: يُريدُ العوْن في أمرٍ به دارا

وأضحى يُبْدي آلامًا وأسقامًا ::: لمن يُلفِتْ له بالعَيْن أنظارا

وأحزانًا على الوَجْه يُجلِّيها ::: بدتْ سَمْتًا وبالأقوال تعْبيرا

لكي لا يقْتَرِفْ إثمًا بأعيادٍ ::: تُزيدُ القوم إشْراكًا وتكفيرا

وعاد القوم من حفلٍ أقاموه ::: ليُسْدوا الْمَعْبدَ ورْدًا وأزهارا

ويسترضوا التماثيل بإجلالٍ ::: قرابينًا وتعْظيمًا وإكبارا

وإذ بالمعبد يُبْدي لهم أمرًا ::: أثارَ الحُزْن فيهم.. بلْ وإنكارا

تراءوا كلَّ أصنام محطمةً ::: عدا ما كان في الأصنام كُبَّارا

وفأسًا قد تراءت فوْق كاهله ::: تُجَلِّي الحقَّ للعِمْيان أنوارا

وتُنْبي عنْ سفاهتهم.. تُذكِّرهم ::: بحقٍّ قد تناسوه.. وقد غارا

لعلَّ الخَطبَ يَسْتَجْلي بصائرهم ::: فَيُسْدي العقْلَ إدْراكًا وإبصارا

فحَطَّت فوق كلِّ مسحةُ الحزن ::: وكلٌّ قد طغىَ ظُلْمًا وقد جارا

وسؤلٌ أُنْثِرَ فيهم حوى كدراً ::: فجالَ السُّؤْلُ فيهم يُجلي أسرارا

وإذ قد أَعْمَلوا الفِكْر بإمعانٍ ::: ليُحْصوا الفاعلَ.. والفكرُ قد حارا

فقالوا بعد تمحيصٍ وتذكيرٍ ::: هو المُتَعَلِّلُ بالسُّقْم تبريرا

فتىً يُدْعى بإبراهيم يُنكِرُها.. ::: لها بالسُّوءِ دوْمًا كان ذَكَّارا

يُسَفِّهُ من يناجيها ويدْعوها ::: ويَزْدَري كلَّ مَنْ ناداها جَنَّارا

فقالوا: أسْرعوا جمْعًا وتكْديسًا ::: وَقودَ النَّار أحْطابًا وأشْجارا

بِكُثْرٍ إذ تعِدُّوهُ لسابقةٍ ::: سَرَتْ للآلهةِ شَراً وأخطارا

فهبَّ القومُ في غيْظٍ وفي كمَدٍ ::: لكىْ يأتوا بما في ذِهْنِهم دارا

فمنهم من جَرَى يسعى بتحفيزٍ ::: يُقيمُ الصَّرْح بُنْيانًا وأحجارا

بلا سقْفٍ لكىْ يُلْقوه مقذوفًا ::: بجوفِ النار من أعلاها إقْرارا

وراحوا يجمعوا الأحطاب أزمانًا ::: وصارَ هَمُّهُمْ أنْ يُكْثِروا النَّارا

ليحموها ويُثروها بتأجيجٍ ::: لكىْ يُصْلوهُ نارًا تكْفي أقطارا

وجاء اليومُ مشهوداً من الجمع ::: وكلٌّ يرجو للأصنام إظهارا

له قد أوقدوا ناراً من الحقد ::: أحالت لَيْلَهُم لَهَبًا وأجْمارا

تلاشاها الوحوشُ في دُجى الليل ::: حَواها الرُّعْبُ رُقْبانًا وإدْبارا

وأجواءَ السما غطَّتْها أدخِنةٌ ::: أحالتها ظلامًا يُخفي أقمارا

وكلُّ القوم من أدنى إلى أعلى ::: حضورٌ يرقُبوا سمْعًا وأنظارا

أقاموا (المَنْجَنِيقَ) في مدىً قاصٍ ::: سحيقٍ في الفَلا كَيْ يَتَّقوا النارا

على قرع الطُّبول والترانيم ::: هَوَى قذفًا بجَوْف النَّار قد سارا

وراح الجمع مسرورًا إلى حينٍ ::: وقد باتوا يُذيعوا الأمْرَ سُمَّارا

وبعد الحين من إخماد نارهموا.. ::: إلى الصَّرْح غَدَوْا يُحْصونَ أخبارا

وإذ بالنار بعد الجُهد قد صارت ::: رماداً والخليلُ حُفَّ أنوارا

ومَنْ قد جاء بالفرح على عَجَلٍ ::: ويَعْدو سابقاً للنَّاس مسْرورا

لكىْ يسْتطلع الأخبار في شَغفٍ ::: فإذْ بالذُّعْر ولىَّ.. يَهْذي مَثْبورا

وكلُّ الجمع من بعد المعاينةِ ::: بكُلِّ الخِزْي عادوا.. أُتْرِعوا العارا

مغاليقُ القيود إذ بها صُهِرَتْ ::: وذاب القَيْدُ ؛ما قد أبْقَ آثارا

قيودُ الظُّـلم قدْ ذابتْ من النَّار ::: وإبراهيمُ ناجٍ يحْيا مسرورا

تناجيه الملآئكةُ مُسَليةً ::: كمن قد حَلَّ جَنَّاتٍ وأنهارا

وَوَجْهُ النَّاجي بالبُشْرَى بَدَى يَحْكي ::: لناظره من الأسْرار أسرارا

وجسمٌ بضٌّ لم يؤذى.. كساهُ اللـ ::: ـهُ بالنُّور رداءً.. بلْ وأستارا

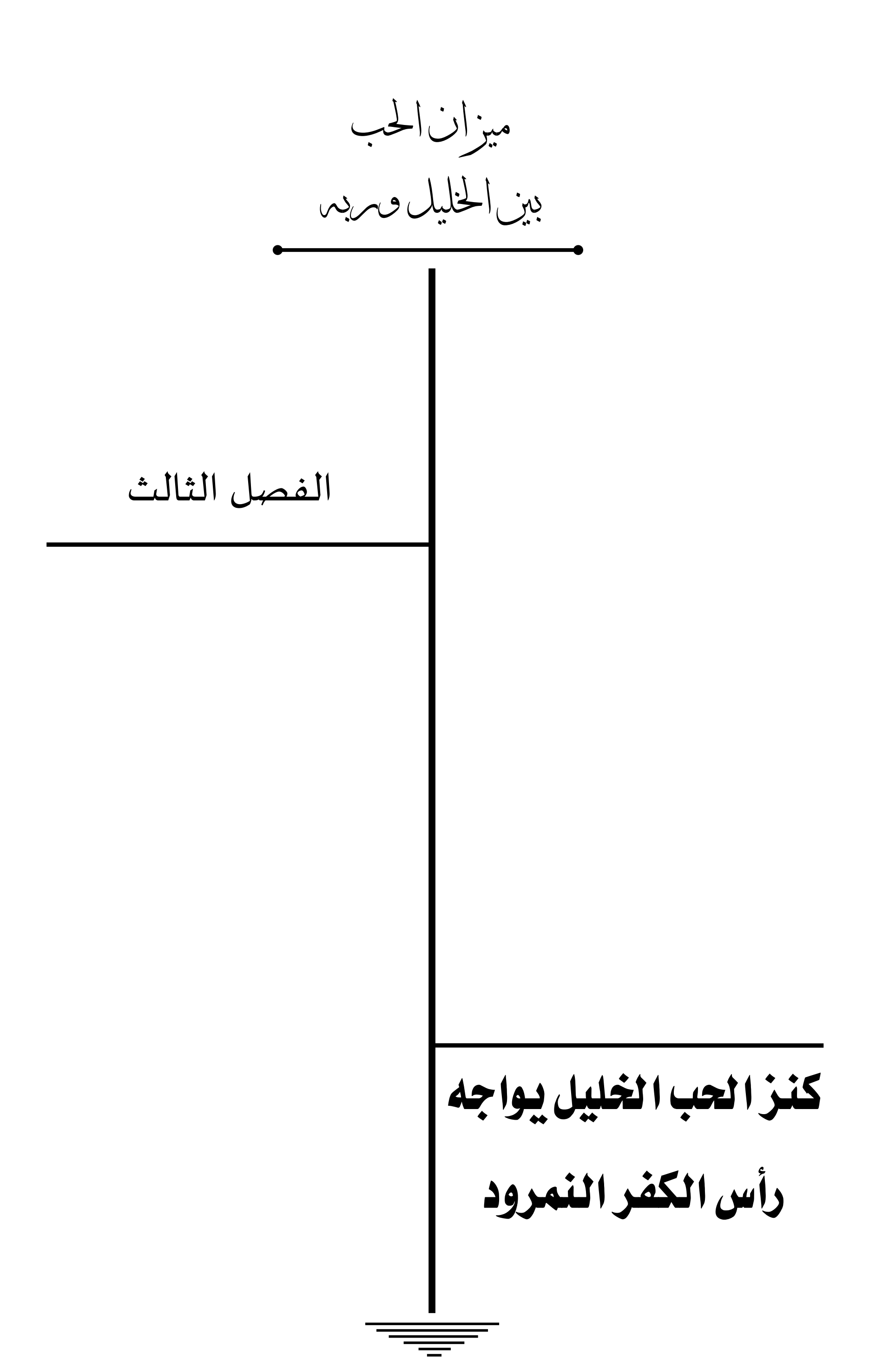
وخاب الجمعُ إذ خابتْ مساعيهم ::: وأضحى الحقُّ للعاقلين أنْوارا

وخاف الحُكْمُ والأملاكُ تابعةٌ ::: ذهابَ المُلْكِ.. فالأمرُ انْجَلىَ نورا

وبات الملأ والنمرودُ مجتمعًا ::: لبحث الأمر تخطيطًا وتدبيرا

أداروا فِكْرَهم مَكْرًا لِداهيَةٍ ::: لِتُوقي الحُكْمَ والأمْلاكَ أخطارا

ورَبُّ العرْش مطَّـلِعٌ على الأمر ::: أشَدُّ مَنْ قضَى مَكْراً وتدبيرا


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل الثالث
كنز الحب الخليل يواجه
رأس الكفر النمرود

كنز الحب (الخليل)

يواجه رأس الكفر (النمرود)

بُهِتَ القوم وخابت آمالهم، ونال الخِزْيَ أركانُ المُلْكِ وطواغيتُ الظَّلام والضَّلال، وبدى ملأ النمرود في ترنُّحٍ هَلَعاً وخوفًا على ماهم فيه من ثراءٍ ونعيم.. وسرى القلق إلى صدر النمرود، وضاع منه الأمان الذي كان يتمتع به، وترنحت الطمأنينة في قلبه من بعد ثبات دام واستقر ردحا من الزمن، وأذهب الفكرُ نومَه وأرَّقه، ولازمه الهم الذي لم يكن يألفه ولا يتوقعه، وغشيته سكرات القلق والخشية والخوف المتلازم والمتزامن على ملكه وصولجانه الذي تعوَّد عليه؛ فنام مُدَّثرًا بالغم يقظانا.. وأفاق من سكرات العظمة والكبرياء والتعالي على خوف ونكد عظيمين يُؤبيه شموخه - الذي تعود على إظهاره، ومباهاته التي مهما تكلف من عناء ومشقة في باطنه لازمته دائمًا - أن يسمح بظهور آثارهما على هيئته!!..

كانت المعجزة واضحة جلية مدوية؛ أظهرت للناس خيبة أملهم فيما هم عليه من الضلال والبهتان وتفاهة الفكر، وخيبة الانقياد، وغباء الخضوع والخنوع، واضمحلال العقيدة، وسوء الانسياق والتدني الأخلاقي الذي جعل منهم مطايا وخُدَّامًا لعليتهم من الكهنة والحاشية في طاعة عمياء تودي بهم إلى مزيد من القهر والظلم والطغيان.. كما أظهرت صدق دعوة الخليل وواقعيتها وعقلانيتها ونورانيتها الواضحة وضوح الشمس في كبد السماء الصافية لا تشوبها شائبة غيم أو سحاب.. فجال في خواطر العقلاء، بل وأصحاب أنصاف النهى والعقول، ضرورة مدارسة الأمر بَتَمرُّسٍ وعقلانية.. دون خوف أو تحرج أو تمويه أو إخفاء.. والاستماع إلى الخليل؛ فيبين لهم الدلائل، ويشرح لهم الأسباب، وتنقشع الغشاوة عن الأبصار، وتلمع في العقول والنهى الأفكار، وتُعافى القلوب وتنجلي من صدإ الكفر والإشراك؛ فيغزوها النور، ويعلو شغاف الْمُهَجِ إشراق التوحيد ونور الإيمان.. فعسى أن يكون على يديه إنقاذهم مما هم فيه من قهر وإذلال لحاكم ادَّعى الألوهية عليهم، وادعائه أن الكهان والأصنام وسائط له قِبَلَ شعبه إتّقاء غضبه وابْتغاء مرْضاتِه.. تُقَدَّمُ إليهم الأموالُ والهدايا تقرباً واسترضاءً..

ويُسَخِّرونَ أنفسهم في خدمتهم إجلالاً وتعظيماً وإكبارا.. ومنهم يشترون الأصنام بما يحددونه لهم من أثمان وعوض دون نقاش ودون جدال.. وبين الفينة والأخرى يتفننون في تصنيع أصنامهم ويخرجون للناس أحدث النماذج والمبتكرات فيتركون القديم ويشترون المستحدث ليواصلوا عبادتهم على الوجه الذي يرضي وسائط النمرود الإله؛ حتى لا تقع عليهم اللعنة ويُصَبُّ عليهم العذاب.

تناقش الناس، وعلت الأصوات وارتفعت النبرات، وبدأ الخوف يضعف شيئا فشيئا، ويتحاكى الناس بما شاهدوه من إعجازٍ في بيوتهم ومنتدياتهم والطرقات؛ مبهورين بما حدث؛ مُتَشَنِّفين ومتشوقين لمعرفة المزيد من الخفايا والأسرار.. تشرئب فيهم النفوس قبل الأعناق، وتتسرق الآذان السماع لمعرفة الحقيقة، والوصول إلى بر الأمان.. وفي المقابل كان الخوف والقلق يتنامي ويزداد في قلوب وعقول أصحاب المناصب، ويلف الهلع أصحاب النفوذ والحكم والسلطان.. وخَشِيَ النمرود وملؤه وكهنته على ثرواتهم وعلى ما هم فيه من عز وسلطان.. وأشفقوا من ضياع مهابتهم وأن تؤول إلى الزوال؛ ويضيع الملك، ويعلو شأن إبراهيم فتتبعه الرعية، وتثور ثورتهم وتقوى جرأتهم على مواجهة الملك الإله، والتمرد عليه وعلى من معه من دعائم الظلم والضلال.. فساعتها لن ينفع معهم بطش ولن تجدي معهم حكمة ولن يغني معهم تخويف آلهة ولا كهان..

اجتمع النمرود بحاشيته وملئه وكهانه لتدارس الأمر، وليدلي كلٌّ منهم برأيه ومشورته لاتخاذ ما يُجْمِعون عليه من قرار قبل فوات الأوان وسريان الدين الجديد بين الشيوخ والشبان - بعد ما بات الحدث ينتشر في الأجواء، وأصبح يمثل اهتمامًا مُشْتَرَكًا بين العامة من الناس يتناقلونه فيما بينهم في تشوف وتشوق وتعجب في البيوت والطرقات - فتقوى شوكة إبراهيم ويتبعه التابعون.. وتسري دعوته في الناس سريان النار في الهشيم.. وَسَاعةَ إذْ تكون الآزفة التي لا تكشفها كاشفة.. ولا يعوق اكتساحها عائق.. فتكون لأعمدة الظلم ودعائم الطغيان جائحة..

تواصلت الاجتماعات.. وقام الملأ على قدم وساق.. فلا نوم ولا راحة ولا غفوات.. ولكنها باتت في الصدور أناَّتٌ وفي القلوب هَنَّاتٌ.. وكادت تترجرج في العيون دمعات.. وتترهف الآذان لسماع خبر من هنا أو من هناك آت.. وجاشت في الصدور الهواجس والأحزان، واتَّقَدَتْ بشتى الحلول ومخارج النجاة الأذهانُ، ونشطت الملكات، وتفتقت الأفكار.. ومع تواصل الاجتماعات واللقاءات دارالمدارـ على جميع الأفكار والتوقعات والاحتمالات - دورات ودورات..

كل هذا.. والجميع يخشى أن يَمَسَّ الخليلَ أَيَّ مساس.. !! فالذي نجاه من جحيم النيران قادر على أن يبطش أشد ما يتخيل من بطش بمن يمسه.. ثم يخرج هو من براثن الكيد سليما معافا كما خرج ناجيا سليما معافا سعيدا مسرورا من النار. ويا لها من نار!!

استقر الرأى بالإجماع على ضرورة المداراة لهذا الرجل والتعامل معه بالمهادنة والمناورة والحوار.. وقد قرر الحُضورُ في مجلس التخطيط والتدبير أن أقدر الحاضرين على القيام بهذا الأمر وفي هذا المضمار هو صاحب الرأس الذكي والعقل المدبر الذي ساس البلاد والعبـاد فَقَدَرَ عليهم حتى اتخذوه إلهًا يعُبْد من دون الله.. إنه النمرود.. وليس غير النمرود.. داهية البلاد!!.. فهو الأقدرعلى القيام بهذا المقام.. يواجه الحجة بالحجة، ويعلو على المحجة بالمحجة فيما يتردد ويقال..

* * *

اللقاء المشهود بين الخليل والنمرود

أرسل النمرود وفداً إلى إبراهيم يدعوه إلى لقاء الملك.. واستجاب الخليل لدعوته لعل في لقائه هذا بالنمرود تكون الهداية والتوبة والإنابة للنمرود وأتباعه؛ بعدما سمع سماعًا كرأي العين عن المعجزة التي أكرمه ربه سبحانه وتعالى بها من نجاة من النيران بعد تكسيره الأصنام والأوثان.. فيُفْتَحُ بهدايته وإيمانه بابُ خيْرٍ يُفْتَحُ ويَلِجُ منه الجميع عبادا مؤمنين موحدين لرب العالمين..

وقف إبراهيم أمام النمرود الجالس على كرسي عرشه.. وقف قويا بقوة إيمانه.. عزيزا بعزة ربه.. منتصبا بانتصاب عقيدته.. فتيا بفتوة شرعته.. شديدا بشدة حبه لخالقه سبحانه وتعالى.. يشع وجهه نورا من فيض نور حبه وإيمانه بالله الرحمن.. منتظراً بدأ الحديث والحوار.. وماهى إلاَّ لحظات قصيرة من الانتظار حتى بدأ الحوار.. وهو حوار قوي بين حقٍّ أبلج واضحٍ وُضوح النهار في يوم صائف مشمس؛ شمسُهُ في كبد السماء.. وبين باطل متغطرس متسربل بوحال الظلم والضلال.. والصلف والعصيان..

بدأ الملك الحوار متظاهرا برباطة الجأش (وقلبه يعتصر حسرة على ما ألم به وما آل إليه) فتوجه إلى إبراهيم بكامل وجهته وهيئته مفتعلا ابتسامة على وجهه استمالة لخصمه.. لعله يستطيع أن يستميله إليه فيتبعه وينخرط في رعيته وَيسْلَم هُوَ ومُلْكُه مِمَّا يتهدده من مفاجآت ومخاطر زلزلت عرشه وأقضت براحته وراحة أتباعه.. وأطاحت بأمنه واطمئنانه.. ووجه إليه سؤاله برفق ولين مصطنعين قائلاً:

**- هل تعبد ربًّا غيري؟!!... ثم استطرد مستنكراً بعد هنيهة من الوقت:... ومن هـذا الإلـه الذي تدعو إليه يا إبراهيـم؟!!... ومن هذا الذي وجدته أعلى مني مقاما؟!!... وقدرته تفوق قدرتي؟!!... ثم ابتسم ابتسامة عريضة كلها خيلاء وغبطة... وأردفه مستنكرا ومتعجباً!!... بعد أن أرسل إليه تنهيدة استنكار واستعظام لهذا الأمر الذي ينادي به إبراهيم... فقال مستعليا!!... ألا تراني المتصرف في الملك والمدبر الوحيد لـشـئون البـلاد والعـباد؟!!... ألا تراني أُحْكِمُ الأمر؟ وأُبْرِمُ مأشاء.. وأنقض ما أشاء... وأُخْضِعُ رقابَ العظماء؟!!... فلا عظيم غيري.. ولا يقدر أن يستعلي عليَّ عالٍ... فمن ربُّك هذا أيها الفتى؟!!.

قال إبراهيم - في ثباته المعهود الذي ظل عليه، وثقته بالله التي لا تهتز ولا تميل.. وبرباطة جأش محكمة لاتحيد.. وقناة لاتلين.. وإصرار على الحق.. لا تفتر عزيمته.. ولا تضعف عريكته.. فتىً يوزَنُ بكُلِّ الفتيان... وصدَقَ مَنْ أخْبر عنه في أتَمّ وصْفٍ وأكملِ بيان.. وصْفُ الخليل لخليله:{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) } [النحل: ١٢٠] –

أيْ أنَّه يحْوي بين جنباته عظيم الشِّيَم والأخلاق في أُمَّةٍ كاملة!!.. سبحان من سوَّاه وأعَدَّه على هذا الكمال من الوصف!!

أجابه الخليل الفَتِيُّ بطلاقة لسان، وشجاعة بها لايستهان، واطمئنان جنان لايوافيه في الوصف بيان بقوله:

**{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) } [البقرة: ٢٥٨].

وهنا نطق اللسان المتعجرف المتكابر بالمُواربَة في المُناظَرة، ومارَى بأباطيل الجدال والتعجرف قائلا:

**-: أنا أحيي وأميت.. (وطفق يُبَيِّنُ لإبراهيم الفتَى.. بِصَبْغ بُهتان المقصدِ بزَيْفِ المنْطق.. وأباطيل الضلال.. مستعرضًا فنونَ المراوغة.. وتلوين الأكاذيب بتنميق الألفاظ والأقاويل.. ولَيِّ رقاب الحروف في المقال حسب مايخدم ما هو فيه من ظلم وضلال).. فاستطرد قائلا بسخرية:

**-: أنا أعفو عن المسيء فينجو من الموت بعد أن تحقق له؛ فينعم بالحياة بعد أن كان في عداد الأموات.. (فبعد بكلامه عن المقصود الذي يَعْلَمُه، والمرْمَى الذي كان إبراهيم يقصده)..

وهنا ألقمه إبراهيمُ الضربةَ القاضية، والحُجَّةَ القاصِمَة قائلاً:

**-: إنَّ الله يُطلِعُ الشَّمس من جهة الشرق؛ فأت بها أنت من جهة الغرب.. إن كنت قديراً كما تقول.. أو إلهًا كما تزعم.. !!

وهنا أُفْحَم النمرود؛ وبدى لسانه بالمعقود.. فقد أحاله إبراهيمُ إلى بُهْتانِ ادِّعائه وكَشَفَ الغِطاءَ عن كذبه وضلاله؛ فبدَى جلِيًّا واضحاً؛ فبهت بكفره وافتضاح جهالته.. وساورته الشكوك في مستقبل حكمه؛ وهبط عليه الخوف من أن يضيع عرشه.. بعد اهتزاز قوائمه.. واهتزاز الثقة في نفسه وفي ملإه.. وبدَى بُغْضُه لإبراهيم واضحًا؛ غير أنه يخشى أذِيَّتَه خوْفًا على نفسه مِمَّا قد يُصيبه من العقاب؛ وقد تمثلت له بوضوح واقعة النيران التي خرج منها إبراهيم ناجيا سليما معافى في وضح النهار.. وملء العيون والأنظار.. فاكتفى بتركه وإنهاء مقابلته والأمر بمغادرته..

ولقد نقل لنا القرآن العظيم هذا المشهد المهيب للمناظرة الفاصلة بين رأس الإيمان (خليل الرحمن) بحجته الجلية الواضحة، وبرهانه الساطع اللأّمع؛ وبين رأس الكفر (النمرود) هذا الملك المتجبر المتمرد.. الذي دثَّرَ نفسه (زورا وبهتانا) رداء العظمة الكاذبة، وإزار الكبرياء الباهت الواهن:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) } [البقرة: ٢٥٨].

ساورت النمرود الهواجس، وأحاطت به المخاوف على ملكه وعرشه؛ فأصبح بإبراهيم متربصا.. وبات للمؤامرات عليه مُدَبِّرًا.. يُعِدُّ العدَّة، ويخطط في الخفاء دون إظهار أو إعلان بيان.. يتحين الفرص حتى تحين لحظة الخلاص والإنتقام من غير أن يشير إليه بنان؛ أو يوجه إليه اللوم من أحد مهما كان.

تريث النمرود مفكرا كيف يدافع عن عرشه؛ ويحول بين الضياع وملكه، وظل يُعْمِلُ فكره، ويدبر أمره من غير ضجيجٍ ولا إظهار معاداة، ولا إعلان معارضة.. وقد توصل بتفكيره إلى بث العيون حول إبراهيم؛ لرصد الراغبين إليه وصدهم عنه وتسفيه أفكاره لديهم وتحذيرهم من مغبة مايدعوهم إليه ومن غضب المليك النمرود عليهم.. وتابعوا ذلك بالتهديد بإنزال العقاب عليهم وعلى كل من لهم من الأهل والأحباب.. والتضييق عليهم في العيش وسلبهم ماتبقى لديهم من بصيص الحرية حتى في منامهم والمبيت!!..

أما عن إبراهيم فقد أوعز إلى جواسيسه وحُسَّاسِه للتضيق عليه برصد كل تصرفاته والتشويش عليه عند كلامه.. ومضايقته في مزاولة حرفته في التجارة.. وصرف الناس عنه فلا يبتعون إليه ولا يشترون منه.. فضاق به الحال.. حيث لا أمل يرجى في نشر دعوته.. ولا حتى في ممارسة تجارته.. لا صفو عيش.. ولا دعوة توحيد تؤمل في هذه البلاد.. فجمع متاعه وأعد رحاله وخرج هاربا بدينه مهاجرا إلى أرض حرَّان (فلسطين) علَّه يجد فيها لدعوته صَـداً، ولكلامه مسمعا..

* * *

ظهور الحق اليقين... في مواجهة الباطل اللعين

وفاقَ الناس من كفرٍ وإشراكٍ ::: وراحوا يدرسوا الأمر بإمعانِ

ورأسُ الكفر نمرودُ وعُصبتُه ::: أقضَّ الأمرُ مَضْجَعهم بكتمان

فباتوا الليل أيقاظاً بلا نومٍ ::: يخالون مصائرَهم بإتقان

وأمرًا قد أقرَّته جماعتُهم ::: يُجارون الخليلَ ذا بإحسان

ونمرودٌ يُباريه مناظرةً ::: لعلَّ الدَّاع يتابعه بإيمان

وهل يصعب على النمرود إفحامٌ ::: ليُثني العاصي عن غَيٍّ بإذعان

وَهُوْ ذوالشَّأن في المُلْك بحكمته ::: إلهُ المُلْكِ من أرضٍ وإنسان

فجاءوا بالخليل في مواجهةٍ ::: يُناظِره بعقلٍ أو بوجدان

فقال الفاجرُ: من ذا الذي تدعو ::: إليه - من إلهٍ - يُعْبَدَنْ دوني؟!!

فأفحمه الخليلُ.. حاسِمَ الرَّدِّ ::: إلهي من يُميتُني ثُمَّ يُحْييني

فجادل باطلاً: من قد أساءَ أعْـ ::: ـفُ عنْهُ.. يحيا من موْتٍ.. بإيقان

ومن أَهْوَى لهُ الموْتَ.. تَراهُ أُزْ ::: هِقَ الرُّوحَ بأمْري.. دُونَ تَهْوين

فَألْقَمَهُ خليلُ الله صاعقةً ::: أساخَتْ منه ساقَيْه بتَمْكين

إلهي يأتِ بالشمس منَ الشَّرق ::: فأشْرِقْها مِنَ الغرب ياذا الشَّان

غاص الهالكُ في عرشه ذُلاًّ ::: وغُصَّتْ نفسُه مِنْ مُرِّ خُذلان

وضاق الحاكِمُ ذرعاً بإبراهيـ ::: ـمَ.. والضعفُ تغشَّاه بتَوْهِين

ولمْ يجْرُؤْ على قوْلٍ يُهاجِمْه ::: وَهُوْ الكذَّابُ.. مَوْصُومٌ ببُهْتان

وإبراهيمُ محْفوظٌ بجُنْد اللَّـ ::: ـهِ يعْلوهُ الوَقارُ.. فيْضٌ بإحْسان

وخاف ذو الضَّلال أن يُثلَّ العر ::: شُ.. إذ خارت قُواه بعد طغيان

و بالإدراك لم يبدُ له حلّ ::: سوى الصبر.. وإمهالٍ إلى حين

و راح يمكرُ المكرَ.. يُضايقه ::: بتخصيصٍ لتُباَّعٍ.. بتعيين

يُقَلِّبَنْ عليه كلَّ منْ يدعو ::: بتسفيهٍ.. وإيذاءٍ.. ونُكران

وفي الأسواق إذْ كانت تجارتُه ::: أصابوها بإكسادٍ وخُسران

فمن يُشريه أو يبتاعُ سلعته ::: يكيدوه بإسْرارٍ وكتمان

وصاروا يُحْكِموا الأمر بتضييقٍ ::: وتَنْفيرٍ لذي صحبٍ وخِلاَّن

وترهيبٍ لمن يسعى لصُحبته ::: ومن يُصغي لدعوته بآذان

فصار اليأس والحزن يؤرقه ::: بتثبيطٍ لدعوته وخذلان

ولم تبدُ له جدوى لدعوته ::: بلا تعزيزِ من أهلٍ وأعوان

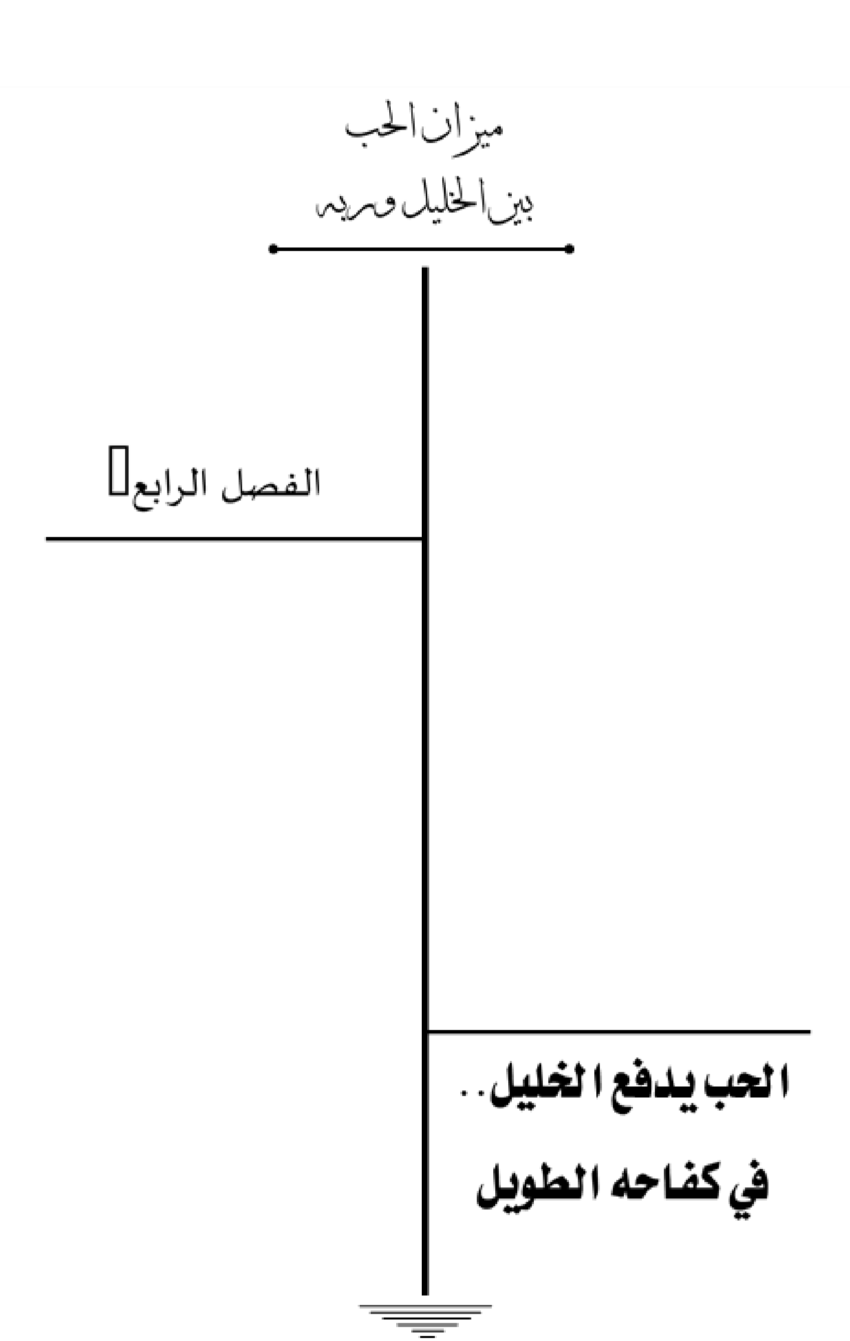
وبات العيشُ لا يحْلو بتيئيسٍ ::: وصدٌّ عن عُرَى التوحيد والدين

وآمالٌ لنشر الدين قد ضاعت ::: إذ الكفرُ بذي الأرض بتمكين

ففَرَّ.. قاصِدَ الْهَجْر إلى أرضٍ ::: يُمَنِّى أن تُجاوِبْه بإيمان

فراح يَسْعَ مهموماً. وحطَّ الرَّحْـ ::: ـلَ - مَأْمولاً بتوحيدٍ - بحرَّان

* * *


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل الرابع
الحب يدفع الخليل..
في كفاحه الطويل

الحب يدفع الخليل .. في كفاحه الطويل

أعدَّ الخليل خطته للرحيل من دار الكفر والضلال متوجها إلى بقعة أخرى من بقاع أرض الله عله يجد فيها أذنا صاغية ورأسا واعية لدعوته.. يلفه الحزن والأسى على ضياع وطنه في تيه الشرك والكفران وعدم استجابة أهله وقومه لدعوة التوحيد لرب الوجود والأنام..

طال عليه السفر موصول الليل بالنهار لا يفتر في المسير ولا يضل المسار.. هجير الشمس يحرقه نهاراً، وصقيع البرد وزمهريره يلهبه ليلا.. ويزيد في آلامه حزنه على ما أصاب أهله ووطنه من الضلال والإنغماس في الشرك والكفران.. كان هو حادى رحله.. غناؤه هو الذكر.. وترنيماته هى التسبيح.. وتسليته كانت في التكبير والحمد والتهليل.. وكانت الشُّقَّةُ بعيدة، والمشقة ثقيلة، والمهمة التي بُعِثَ من أجلها صَعبة وعصيبة.. يريد أداءها في قوم مصيبتهم جليلة، وَطوِيَّتُهم ظلومة، وفكرتهم ملومة، وعقيدتهم ضالة مذمومة.. فواصلَ الليل بالنهار في سفرة الهداية لأهل الكفر والضلال.. لا يُحَطُّ من عزيمته، ولا يُفَتِّرُ من إرادته، ولا يدعوه التعبُ ليعطي جسمه شيئاً من راحته.. فلا يركن إلى الراحة.. ولا يسمح لنفسه من الدِّعَة استباحة.. إنه الإصرار لبلوغ الغاية.. إنه الحب والخلة والولاية..

ها هِيَ أرض حرَّان.. قد وصلها بعد معاناة شديدة، ومكافحة من نوعها فريدة، وعزيمة مستميتة.. فَلْيُنِخْ الرحال.. ولْيَسْتَرِحْ من عناء السفر والترحال.. ليبدأ الجهاد من نفس البداية وبنفس المسار.. بعد أن آل إليها المآل.. فركن قليلا إلى الراحة؛ ليستجمع شتات قوته، ويلم من شعثه، ويصلح من هيئته، ويُطَوِّع من سحنته، متناسياً ما كان قد جرى من أمورٍ عظام في موطنه وهو بين ظهرانيّ قومه وأهله وأمتِّهِ؛ ليتفرغ من جديد لأداء مهمته.. واتخذ من فترة راحته وهدنته هدفا لرصد ودراسة سلوك القوم الذي نزل بهم.. يستطلع أمرهم ويستبين دينهم ليعد عدته لمواجهتهم على ضوء ما يتعين له من شتات أمرهم وخصوصيات عقائدهم وعباداتهم..

أسفر الرصد والمتابعة إلى أن أهل حران يدينون بخزعبلات تحيد عن الحق اليقين، والصراط المستقيم.. فقد تيقن أنهم في الليل يجتمعون. وإلى السماء ينظرون. وللنجوم يذرفون الدموع من العيون. ويميلون بأجسامهم خشوعا لها خاضعون. إذ أنهم إياها يعبدون!!..

فكر في المدخل والبداية.. لمواجهة أهل هذه الغواية.. بما لايثير ثائرة منهم عليه.. فَيُنْزِلون الطامة بهذا الغريب.. الداعي لما يرونه فيه مريب.. ويطردونه من دارهم قبل أن يسفه آلهتهم.. ويحقر عباداتهم.. وينغص عليهم معيشاتهم.. ويدك أعمدة استقرار حياتهم.. فيطاردونه إلى فج بعيد.. ويبق هو عن الناس الشريد.. ولن يتمكن حينئذ من الإستمرار في نشر دعوة التوحيد.. وليس في الكون يومئذ سواه وزوجه (سارة) غير (لوط) في حظيرة التوحيد..

ادَّعَى أنه منهم.. وجاراهم في عبادتهم.. ومضى في خطَّةٍ واعية.. يسوقهم بها إلى بر الأمان.. وينتهي بهم إلى عبادة الله الرحمن.. فينجون من العذاب والعقاب.. ويدخلون في معية أهل النهى ذوي العقول والألباب.. فتنجلي القلوب ويسكنها نور الإيمان والتوحيد..

أتاهم وهم في أول الليل مجتمعون يتسامرون ويتحاكون في كل مالهم من شئون.. فقعد في جمعهم.. وشاركهم السمر والمحاكاة.. حتى إذا جن الظلام.. وأسدل الليل أستاره على الأنام.. إذ صَوَّب بصره إلى السماء فرأى كوكبا زاهيا متلألئا في كبد السماء.. فتنهد تنهيدة المحب المشتاق.. وقال في سعادة ومباهاة.. هذا ربى!! ما أعظمه من إله!!.. فهنؤوه وآزروه وامتلأت قلوبهم منه بالإطمئنان.. وسايروه في الكلام.. وكيف لا وقد تأكد لديهم أنه منهم.. وأن عقيدته هى نفس عقيدتهم؟!!..

وفي ليلة أخرى إذ كان في مجتمع صحبتهم بحث عن الكوكب فلم يجده إذ قد أفل، وعن العيون والأبصار قد غاب.. فلفت إليه الأنظار.. وقال موجهًا إليهم حجته.. لقد أفل (غاب) إلهى.. وأنا لا أحب الآفلين.. سأبحث عن إله غيره!!.. فصدَّقوه فيما إليه من الرأي آل.. إذْ تابعوا أنظارهم صوب السماء.. يبحثون في الفضاء عن الكوكب أو النجم الذي غاب.. فلم يجدوا له أثراً.. ولم يدركوا له ذكراً.

وقد كان الشهر منتصفا.. والبدر كاملا.. مستوي الدائرة.. ساطعا نوره.. كاشفا ظلمة الليل.. يزيّن وجوهَ الحضور من السُمَّار بنوره الفضي اللامع.. فلفت إليه أنظارهم بكل الثقة والإطمئنان.. والإعتزاز والإقدام!!.. وقال لهم بزهوٍ وانتصار: هذا ربي!!.. إنه أكبر.. ونوره أسطع.. يهزم الظلام بنوره.. ويحيل الوجوه نورا ساطعا.. ويملأ القلوب خشوعا والنفوس حبا.. لقد أحسنت اختياري!!.. وحسمت في ربي قراري!!.. فناصروه وأيدوه وباركوا اختياره!! محقرون إلهه (كوكبه) الذي أفل (غاب).. وتحت خط الأفق نزل وسفل.

اطمأن الخليل لاطمئنانهم إليه.. ومتابعتهم إياه في تنقلاته بين النجوم والكواكب.. ومؤازرتهم إياه.. فتشجع لإكمال تنفيذ خطته.. لعلهم ينصاعون إليه.. ويقطع بهم الشوط حتى نهايته..

التزم الصمت والثبات.. إلى أن حان من الشهر آخره.. وضاع القمر واختفى.. فأعلن فيهم استنكاره.. وغضبه من هذا الإله.. الذي ترك الكون وغاب.. ومع ذلك لم يصب الكون بأذىً.. إذن!!.. هناك إله آخر غيره!!.. يملك الكون.. وعلينا أن نبحث عنه.. فتابعه بعضهم تعاطفاً وشفقةً.. وأظهروا استعدادهم لمؤازرته في البحث عن هذا الإله الذي غاب.

وفي الصباح التقى بالجمع ليخبرهم أنه قد عثر على ضالته!!.. واهتدى إلى إلهه بفطنته.. فقال انظروا إلى السماء.. فإذ هم بالشمس في كامل وهجها.. وسطوع ضوئها.. وإرخاء أشعتها.. وانتشار دفئها!!.. فأعلن بكل حزم وحسم.. وبأعلى صوته.. جهارا نهارا.. عيانا بيانا.. على الملإ جميعا.. يعلن تسفيهه للآلهة السابقة جميعا.. ويبدي الندم كله على الأيام التي عبد فيها النجم الآفل.. والكوكب الشارد.. والقمر الذي تمضي عليه الليالي التوالي وهو عن الوجود غائب.. في حين أن الإله المستحق للعبادة وحده أمامنا بازغ - هو الشمس - فالشمس أكبر من كل ما سبق من آلهة، وأنفع منهم جميعا (اجتمعن أو تفرقن).. هاج الجميع وماج.. ثم فكروا فيما قال.. والشمس لا زالت فوق رؤوسهم ساطعة.. ولأشعتها باسطة.. ولدفئها ناشرة.. فصاحوا في الأرجاء.. وتزاحمت أصواتهم الأجواء.. وأثبتوا له الحق فيما قال واستحسنوا منه الاختيار.. وأمَّنوا على ما آل إليهم منه من مآل..

وعندما حل المساء.. بعد ما خبت حرارة الشمس شيئا فشيئا.. وذهب ضوؤها رويدًا رويدًا.. وغاب قرص الشمس عن السماء.. وحل في إثرها المساء.. وهم عن هذا غافلون؛ وفيما بين أيديهم من أعمال واهتمامات مشغولون.. أعلن على الملأ تسفيه كل ما سبق ومَرَّ عليه من آلهة كاذبة.. إذ كيف يغيب الإله.. والكون باق لمنتهاه، ولم يناله سوءٌ!!.. ولم يعتريه تبديل ولا تغيير!!.. وأخذ يكفِّرُ عُبَّادَها.. ورمى بالشرك أتباعها.. وأعلن أن هذه الأشياء لابد لها من خالق.. يسيرها في المدار.. ويحركها في المسار.. لا تستحق أن تعبد.. ولا تعظم ولا توقر!!.. وهنا أعلن دعوته.. وبين لهم أن الله هو خالق كل شيء.. وهو المستحق للعبادة.. والتعظيم والإجلال من كل شيء.. ومن أي شيء كان.. مقرونا بالخضوع له والخشوع.. وهو الذي يجب أن تذرف له من العيون الدموع.. ويستحق أن تنحني له الأجسام بالسجود والركوع..

وقف الجميع في ذهول من شدة وقع المفاجأة، وحاجوه فيما دعاهم إليه؛ لعلهم يفلحون في إعادته إلى ماهم عليه من دين واعتقاد.. محذرين إياه من وقع العقاب عليه من الآلهة.. أو أن تصيبه بأذىً؛ أو تناله بسوء الملمات.. فتعجب لذلك الذي يخوفونه.. وأنهم لا يخافون الله رب العالمين!!.. ولما وجد فيهم الإصرار على ماهم عليه من الكفر والشرك والضلال.. حذرهم من عقاب الله.. وسوء المصير يوم الوقوف بين يدي السميع البصير.. الذي هو على كل شيء قدير.. والقرآن العظيم يصور لنا ما كان بين خليل الرحمن (حبيب الله) وبين أهل الضلال في حران؛ ولقد أوردها ورودًا مفصلاً في سورة إبراهيم وسورة الصافات فيقول:

{ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) } [الأنعام: ٧٥ - ٨٣].

{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) } [فصلت: ٣٧].

* * *

فرار الخليل بدينه إلى حرَّان

فرار الخليل بدينه إلى حرَّان

لإتمامٍ لِما قد كان في القصْر ::: مع النمرود. . إذْ قد وُفِّىَ الكيْلا
أذلَّ العبدُ نـُمرودَ وأفـْحَمه ::: ودثَّرَه ثيابَ العارِ . . والفشلا
فعاد العبدُ منصوراً . به أملٌ ::: يُزَكِّي النفسَ والقلب .. كذا العقلا
تجلَّى النصرُ بالإهلال والنور ::: بوجـهٍ للخليل دُ ثُرَ الفألا
وراح خارجًا من قصر نمرود ::: يُحَفُّ بالظـُّهور إذ ْهُوَ الأعلى
وآمالٌ لنشر الدين تحدوه ::: يباركها . .؟ ويرجو زَخـَّها نيْلا
وإذْ في الناس قد دَسُّوا له الأعدا ::: ءَ جُسًّا سأً وحُسَّاسًا لهم مُقْلا
يُزيحوا عنه من يرجو له سمعًا ::: بتهديدٍ لمن يسمعُ له قوْلا
وتسفيهٍ لما كان له يدعو ::: يَعيبون له الأقوال والفعلا
يَكُفـُّوا الناسَ عن لُقياه إجبارًا ::: بتضييقٍ حَوَى التَّضْليل والجهلا
وبذل المال لذي التأثير في الناس ::: إذا رأَوْهُ يَشينُ الفعل والقولا
وفي الأسواق قد عاثوا فساداً إذْ ::: تخطُّوا الدعوة في كيدهم بذلا
يذبُّوا الناسَ عنه في تجارته ::: فأضحى العيْشُ فيهم مُوحِشًا ضحلا
وبات العقل مشغولاً بما يجري ::: و نبضات الجَنان بالضَّنى حُبْلى
فكان المَهْرَب من شدَّة الظلم ::: خروجاً من ديار الظلم مُرْتحِلا
لعلَّ اللهَ شاء الفتحَ للدين ::: بأرضٍ قوْمُها كانوا لها أهلا
أعدَّ العبدُ عُدَّتَه ليرتحل ::: حزينًا . . يَهْجرُ الأوطان والأهلا
وسار الرَّحْلُ في ليلٍ حَوى الحزنُ ::: جوانحَهُ . . وقد أُصبِغَ به الرحلا
وإبراهيمُ بالذكر يحاديهِ ::: فيُثْري الكون منه . . ينهل نهلا
بتكبيرٍ وتهليلٍ وتحميدٍ ::: لربِّ الكوْن ذكراً . . إنه الأعلى
وطال الليلُ موصولاً بإسدالٍ ::: وحطَّ الحزنُ في المَمْشى بلا مَجْلى
إذا كان الهجير سار مهمومًا ::: وفي الليل سرت أحزانُه وصلا
تَساوَى الصُّبْحُ . هاجرةً حَوَتْ لهبًا ::: مع البرد في ضَيِّ الأنجم ليلا
عظيمُ الحزن قد أضناه في كمدٍ ::: على قومٍ قلاهُم . . خُضَّعًا هُملا
وكان القصدُ(حرَّان) ليدعوها ::: عساه أن يجد في الأرض مؤمّلا

وطال السَّيْرُ موْصولاً يرى فيه ::: مِنَ الآمال ما يحدوه مُعْتملا

وبعد الجهد في الأسفار موصولَ الشـُّ ::: ـموس من لظىً بالأنجم ليلا

أناخ الرحلَ في أرضٍ بها قومٌ ::: بها الخيراتُ قد وفتْهموا الكيْلا

وظلَّ العبدُ في صمتٍ يراقبهم ::: ليُحصي عنهموا الأحوال والفعلا

وفي صمتٍ أجال العيْن والفكرا ::: عساه يبلغ في سعيه الأملا

رآهم يرسلوا أنظارهم للبحـ ::: ـث عن زُهر النجوم في السما ليلا

يبُثُّوها ترانيمًا بإكبارٍ ::: أمالوا دونها أجسامهم ميلا

خضوعًا راكعون في خشوعٍ. .ألــَّ ::: ـهُوها . . يُذْرِفوا الدَّمع لها ذُلا

فغاص العقلُ فيه عمقَ تفكيرٍ ::: بتدبيرٍ يُقيلُ الظلم والجهلا

رأى لوْ أنْ يُجاريهم بفتنتهم ::: لإرشادٍ ينير القلب والعقلا

وفي ليلٍ رأى الجمع قد التفُّوا ::: يناجون نجومًا في السما..خُبلا

فجاراهم وقال نـَجْمِيَ ربِّي ::: ولمَّا غاب قال: النـَّجم قد أفلا

وحان الوقت للبدر إذ ْاكتملا ::: فقال البدرُ إجمالاً هو الأعلى

فلما غاب منتقصًا . . خبا النورُ ::: أذاع الرفضَ إعلانًا ومعتَزلا

تجلَّتْ في السما شمسٌ لها نارٌ ::: ونورٌ كاشفٌ يُنْشي لنا الظِّلا

فقال: الشمسُ ذي في حجمها أكبر ::: تبثُّ الضُّرَّ والنَّفعَ . . هِيَ الأولى

وعند الليل غابت شمسه الكبرى ::: فبات يعلن القوم بما أدْلى

إلهُ الكون إن غاب عن الكون ::: لضاع الكوْن ُ.. إن قد يُتْرَكَن همْلا

فيا قوم أصيخوا السمع لي أُذُنًا ::: فإنَّ خالق الكون هو الأعلى

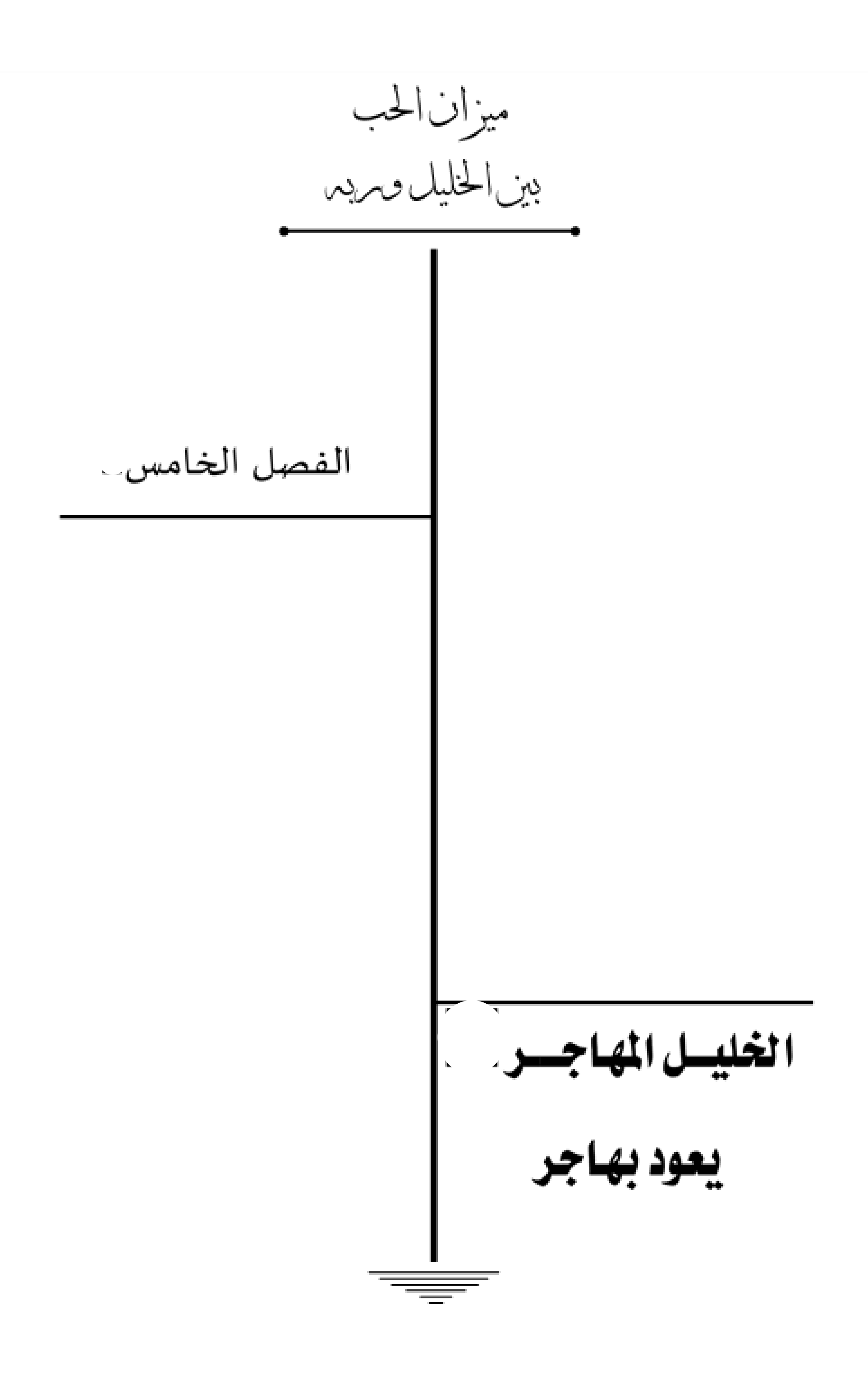
فعادوه . . وعابوه . . لما قال ::: أخافوه من الضُّرِّ لما أدلى

وقالوا: الآلهةُ قد تُنْزِلُ الأنكا ::: ل بالمُغْضِبِ لها . . أو عنها قد وَلَّى

فقال ربِّيَ . . الخالقُ الأوْحَد ::: هُوَ الله ُ. . هُوَ الحقُّ . . هُوَ الأَوْلى

ومِنْ إصرارهم كُفْراً أُصيبوا الجَدْ ::: بَ إذْ قد أضْحوا.. والقحط بهم حلَّ

و قد بات يُجافيهم . . وينوي هجـ ::: رَهُم . . والوجْهُ مِنْهُ عنهموا ولَّى


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل الخامس
الخليل المهاجر
يعود بهاجر

ربنا الحنَّان يكرم الخليل.. بنبع الحنان أم إسماعيل

استمر الخليل في مواصلة الجهاد دون توان في مواجهته الحاسمة لأهل (حرَّان) آملا أن يطوِّع عقولهم لإدراك البيان، ويلين قلوبهم بمحبة الرحمن؛ فتستنير العقول برؤى الآيات، وتزكى القلوب بنور الإيمان، وتستجيب أجسامهم لصحيح الإعتقاد.. فعن عنادهم يثوبون.. وبالله الواحد يؤمنون.. فهو الذي من خيره ينهلون.. وفي واسع رزقه ينعمون.. فيتحقق له بذلك غاية المراد، ويدخل الناس في دين الله..

ولكن هيهات.. ثم هيهات.. لقد أبت عقولهم أن تستجيب إلى حقيق الآي والبرهان.. ولم تعد تؤثر فيها رؤى الآيات؛ وعمت قلوبهم فلم تستجب لبصيص نورٍ من إيمان.. وأصبحت أجسامهم كأخشاب أسندت إلى أركان الضلال ودعائم الفساد والإفساد.. فلا تكاد الآذان تسمع النصيحة والهداية.. ولا تعي نصحاً ولا وعظاً ولا إرشاداً.. وكأنها قد صُمَّت إلاَّ عن الهوى والغواية.. ولا تكاد العيون تبصر إلا علامات الكفر والشرك.. ولا تدرك إلا أدوات الإفك والضلال.. إذ عليها تَسَمَّرَتْ ولا تبدو عليها بادرة من رغبة لأن تحيد عنها إلى غيرها.. وكأنها على ذلك طُبِّعَتْ.. وهى على ما هى عليه استقرت واستسلمت.. وباتت على ذلك وأُسْكِنَتْ.. سواء أُسْدِلَت عليها الجفون.. أو حُرِّرَت من الجفون العيون.. سواء بسواء..

وما استقرت عليه الأبصار.. انشغلت به الأفئدة والقلوب.. فأصبح الباطن فيهم وبات على ما تماشيا مع ما أملى به الظاهر من أدوات وحواس.. وكأنما القلوب قد غُلِّقت على أسباب الضلال.. وغُلِّفت بغلاف الظلم والظلام، والتحلل والإنحلال، وأوصدت بمزاليج وأقفال من حديد.. فلا مجال عندها للمزيد أو التغيير أو التبديد..

تعب الخليل ولم ييأس منهم.. ولكنه صبرعليهم وصابرهم.. وهادنهم ليفكر في جديد أسلوب أو سبيل لإنقاذهم مما هم عليه وفيه من الخطر العظيم؛ ثم يعاودهم بدعوته ليواصل فيهم ولهم الهداية.. ولكنهم ازدادوا إصرارً على ماهم عليه.. واستنكارا لمايدعوهم إليه.. وكان لابد من عقاب ينزل عليهم من رب الأرباب.. فباءوا بالخزي والخسران.. إذْ أنزل الله بأرضهم الجدب.. وأُصيبوا بالقحط جزاء التمادي في العصيان، وعدم الاستجابة إلى دعوة خليل الرحمن بالتوحيد والإيمان..

أجدبت الأرض كما أجدبت قلوب قاطنيها.. فنزح عنها من نزح من ساكنيها.. وضاع الأمل من عند الخليل؛ ففكر في الرحيل، وقرر مغادرة البلاد، ومفارقة هؤلاء العباد إلى أرض أخرى وقوم آخرين لعله يجد فيهم ضالته؛ ويلقى عندهم صدىً واستجابةً لرسالته، فينجح في نشر دعوته.

يَمَّمَ الخليل وجهه صوب مصر.. فعانى في المسير مثلما عانى من قبل.. يحدوه الأمل في الوصول إلى بغيته.. وتراوده الهواجس من صلف عقول أهل الضلال وتطارده.. ويغالبه الأمل في نشر دعوة الرحمن بالتوحيد والإيمان؛ وهداية بني الإنسان فيما يمكن أن يصل إليه من أرض أو مكان.

مضى الخليل في المسير مواصلا الليل بالنهار ولا يدري بما تخبئه له هذه السفرة (وما تحمله له في طياتها) مما ينتظره من آيات التخطي للعقبات متجاوزا بقدرة الله عظيم الشدائد والابتلاءات.. إظهارا وبرهانا لحب الله سبحانه وتعالى له.

نشط بالخليل المسيرُ؛ وهو الجهول بما ينتظره من مصير.. فواصل الليل بالنهار.. لا تثني عزمه مشقة ولا بعد شُقَّة ولا طول مسار، وتوالت عليه من آيات المدار كثير الشموس والأقمار.. متناوبة الظهور والإدبار؛ في ترادف غير مخل.. لاموحش ولا ممل.. وترصد حركاته عيون الليل من النجوم.. وتحصي خطواته حبات الرمال وتلال الكثبان.. وتشيعه كما تستقبله بالأمان والسلام كتل الصخور والآكام.. والهضاب وقمم الجبال والأعلام.. ومضت به الليالي والأيام ساعيا لمسعاه.. مشغولا بذكر الخالق العلام.. مرتحلا بين أركان الأرض وأنفاس الأنام.. يدفعه حبه لنشر الدين.. فيجِدُّ قاطعا أرض المسار.. لا فرق عنده بين ليل أو نهار.. تمر به الساعات في المعاناة كأنها ثوان في حب ربه الرحمن.. ترافقه وتؤازره في رحلاته زوجه (وإبنة عمه) سارة التي أرادها الله له سندا في مهمته.. وتُسَرِّي عنه في محنته.. واصلت معه الرحيل من (فاران) إلى (حرَّان).. ثم إلى مصر.. يركن إليها ويسكن.. وتخدمه وتقوم على حاجته.. فتهيء له أسباب الأمن والأمان.. وتعد له مؤونته وأسباب راحته (فهي أول من آمنت بدعوته وأسلمت معه لرب العالمين هي وابن عمه (لوط).. لازمته في جهاده.. في حله وترحاله.. لم تمل ولم تكل ولم تتبرم من معاناة في حل أو ترحال خاشعة لله.. آملة في رضاه.. مطمئنة النفس غاية الإطمئنان.. رابطة الجأش.. آمنة الجَنان في صدق عقيدة وقوة شكيمة.. وكانت (كما وصفها الواصفون) ظالمة الحسن والجمال (فكانت جميلة الخُلُق والمُحَيَّا.. صافية الوجود.. دقيقة العود).

إبتُلِيَ إبراهيم في جسده أشد الإبتلاء بتهديده ثم إلقائه في النار عبر مسار بعيد في الهواء من كفة المنجنيق إلى جوف النيران.. وعُذ بَت نفسه اضطهاداً بإبعاد الناس عنه وعزله عن الأنام.. وحورب في تجارته وأسباب معيشته.. واضطر إلى الهجرة مفارقا الأهل والوطن والخلان.. وعودى في دعوته من أهل حرَّان.. وجاهد جهادا مرًّا في حلٍّ وترحال.. (إبتلاءات في الجسد والنفس.. في الوطن والأهل.. في التجارة والمال).. وفي كل هذا كان يُحَفُّ بحب الرحمن وحفظه.. فينجيه من كل كيدٍ ومكيدة.. يصقل فيه الحب والإخلاص فيبتليه.. ثم يسعفه بالنجاء من شر البلاء ويجتبيه.. ولم يتبقَّ من صنوف العذاب والبلاء سوى الْعِرْض..

كلما ابتلِيَ ابتلاءً خرج منه أقوى إيمانا.. وأشد يقينا.. وأكمل برهانا.. وأنصع بيانا.. ومن الرحمن أقرب قربا واجتباءً.. ولم يبق من صنوف البلاء إلا أشدها في بني الإنسان وطئاً.. وأمرُّها على النفوس وقعا.. إنه العرض والنساء!!.. فهل يكون أويقع؟!!.. وكيف يكون المخرج والنجاة إن كان؟؟!!!..

اقترب الخليل بِرَكْبِه شيئا فشيئا من حدود أرض مصر التي كان يحكمها ملك من العرب العماليق (ذُكِرفي كتب المؤرخين أن فرعون مصر هذا كان اسمه سنان بن علوان بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح).. وكان حاكما مستبداً ظالماً، قابضا على زمام الحكم بيد من حديد، ومسيطرا على أرجاء البلاد.. وكان الجميع يخطب وُدَّه ويرجو رضاه.. يتقربون إليه طمعا في الأمن عنده؛ وخوفا من غدره وغضبه.. فسارع أحدهم إليه يوشي بـ (سارة) امرأة إبراهيم لديه.. يذكر له من جمالها الطاغ، ومحاسنها الفاتنة، وكمال قوامها، وباهر قَدِّها.. وأخذ يغريه بها.. فوقع الوصف من قلبه وقعه.. وأخذ من وجدانه مأخذه.. فاشتاق إليها، وأحب أن يتملكها.. إذْ وهى بهذه الأوصاف لا ينبغي أن تكون لرجل سواه.. وتملكت على نفسه الرغبة، وأخذت من فؤاده مأخذاً وهوىً من قَبْل أن يراها.. فأمر باستدعاء إبراهيم (هذا الغريب الوافد من بلاد الشام) ليستطلع عنده الأمر، ويستجلي منه ما عنده من بواطن الأسرار؛ فيعرف من أمره وأمر صاحبته هذه أسباب الصحبة التي جمعت بينهما؛ وما قد يربطهما من صلة أو قرابة.. ثم يأمره بما هو جائل في نفسه إن كان يأمل عنده الأمن والأمان في الحل والمآل.. فيضمن دوام هاني الْعَيْش في استقرار واطمئنان.

فطن إبراهيم إلى مقصده ومطمحه.. وفهم مبغاه!!.. فخاف منه إيقاع الأذية؛ إن علم أنها امرأته.. فيكيد له.. أو يقتله ليستحوذها وتبقى له وحده دون الرجال!!.. لقد أخذته الغيرة على جمالها أن يكون لغيره.. وضنَّ على حسنها أن يمتلكه سواه من الرجال..

فطن إبراهيم لما يدور في عقل الملك وفكره؛ فأخبر الملك بأنها أخته ليأمن شره.. فقربه الملك منه وطلبها منه..

ققفل إبراهيم عائدا إلى سارة وأخبرها بمادار بينه وبين الملك، وطلب منها - إن سألها الملك - أن تخبره بأنها أخته (باعتبار أُخُوَّةِ الإسلام)، وطمأنها بأنه أسلمها إلى الله (وهو خير الحافظين) ودعا الله لها الحفظ والسلامة.. وقد كان!!..

أمر الملك بـ (سارة) فأدخلوها القصر، وألبسوها أجمل الثياب.. وزينوها أجمل زينة.. وأمهروها أثمن الحليّ.. وأسكنوها مخدعه.. فقامت وتوضأت وأخذت تصلي لله تدعوه طالبة النجاة (وكذلك كان حال إبراهيم في حجرته التي تم إيواؤه إليها).. ولم يلهها بذخ العيش.. ولا سعة السلطان عن الوفاء لزوجها.. ولا الانتصار لدينها.. دعت الله وتوسلت إليه (وهو أعلم بما هى فيه وزوجها).. ثم التزمت مكانا منزويا في أحد أركان الغرفة.. كئيبة يكسوها الحزن والهم لما تتعرض له هى وزوجها من سوء البلاء، وشدة المصاب..

دخل الملك عليها الغرفة.. وأقبل عليها متلطفا.. فرأى مابها من حزن وأسى.. ومابدى عليها من لوعة وحسرة.. فأخذ يخفف عنها ويسرِّي ما نزل بها.. ولكنه عندما مد يده نحوها ارتعدت وجفلت، وأحس برهبة؛ فرجع عنها وانتكس خائفاً.. وبعد برهة عاود الإقتراب منها؛ فأحس برعدة قوية اعترت جميع جسده، ولم يستطع مدَّ يده نحوها؛ أو أن يطال منها.. فتركها مضطرب الخاطر؛ متوجسا منها خيفة.. فأوى إلى فراشه دون أن يتكلم؛ فأخذه نوم عميق.. وأراه الله في منامه سبيل الهداية.. وأدخل في روعه ضرورة التَّخَلِّي عنها؛ وحتمية إخلاء سبيلها.. وتركها وحالها.. فلا يمسها بسوء.. ولا يقربها بإثم أو أذى..

أفاق الملك من نومه واستيقظ.. خائفا وجلاً.. واستعاد بذاكرته ما رأى في نومه.. فزاد خوفه على نفسه.. وارتعد قلبه خفقاً.. وانتفضت نفسه جزعاً.. وساورته الظنون والهواجس.. فلم يجد بُدًّا - من إطلاق سراحها وإكرامها - لنجاته.. فوهبها (هاجر) لتكون في حاجتها.. وأسلمها إلى إبراهيم سليمة صحيحة.. غير مخدوشة الحياء ولا مكسورة الجناح..

يا ألله!!.. يا ألله!!.. ما أعظم البلاء!!.. وما أعظم العصمة!!.. وما أعظم العطاء!!.. إنها الخلة!!.. فما أعظمها من محنة كانت!!.. وما أشدها من بليَّة بانت!!.. وما أعظمها من محنة لاحت!!.. وما أعظم الإعجاز إذ أمر الله بها فانكشحت وزالت!!.. سبحان الله!!.. وما أعظم شأن الله!!.. إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون!!..

نارٌ تُسَعَّر ويظل بداخلها أربعين يوماً أو خمسين.. ثم يخرج منها سليماً معافىً غير منقوص ولا مخدوش!.. وقد زالت عنه القيود!!.. بأمرٍ من الله المعبود..

ونجاءٌ من النمرود!!.. وهو في قصره.. وفي متناول يده.. في موعدٍ سبق ترتيبه.. وليس له هناك من قريب أو شفيع.. ويجادل ويحاور ويظهر ضعف من استدعاه.. ويسفه أفكاره ونهاه.. ثم يسمح له بالمغادرة والخروج.. دون قتلٍ أو حتى أذية!!..

وتُسَلَبُ منه امرأته وهو في بلدٍ غريب.. ليس له من نصير من الناس أو مجيب.. تتهدده وصمة العار.. وهى في عُقْر الدار.. وفي مخدع ملك جبار.. يتحاشاه خوفاً أَهْلُ الأمصار.. فتخرج من عنده (بأمر الله) سليمة عفيفة.. سويَّة أَبِيَّة.. تقية نقية.. لم يمسسها بسوء.. محفوظة من الله لزوجها ولنفسها من العار!!.. سبحان الله مقدر الأقدار!!.. إنه الحب.. إنها الخلة!!.. وهل بعد الخلة من تكريم!!..

كان الخليل تاجرا ماهرا.. ودودا.. إلفا مألوفاً.. هادىء النفس والطبع.. صبوراً.. لين الجانب.. نشيطا في عمله.. قنوعا وليس طماعاً.. ذكيا زكيا.. فذاع صيته بين الناس.. فكثر مريدوه.. وكثر ربحه من تجارته.. فأصبح كثير المال والأنعام.. وكما هى العادة في بني الإنسان.. أضمر له أصحاب مهنته الحقد والحسد على ما هو فيه من غنىً ورخاء.. وسعة نعمة وهناء.. فنقموا عليه.. وكادوا له.. وأحس الخليل منهم مرارة الجفاء.. وخشِيَ على نفسه أن يدبروا له ولأهله ما هو في غنىً عنه من الأذى والسوء.. فعقد العزم على الرحيل.. وكانت وجهته في عودته إلى أرض فلسطين (حرَّان).. ليتخذ منها أرض مهجر ومقام.

* * *

تأملات فيما كان بين الخليل وبين ربه خلال رحلة الدعوة

تأملات فيما كان بين الخليل(علي نبينا وعليه الصلاة والسلام) وبين ربه (سبحانه وتعالى)خلال رحلة الدعوة منذ البدايةوحتى استقراره حيث أرض المقام في (حرَّان)

كان الخليل مُتَيَّمًا بحب الرحمن (سبحانه وتعالى)، وكان بكل شيءٍ يضحي في سبيل الحفاظ على حالة الحب هذه ودرجتها العالية؛ فمن ذاق الخلة يستغني بها عن كل ما سواها حتى ولو كانت حياته في هذه الدنيا.. والمعاناة الجسدية وإن طال بها الزمان واشتد عليها الاضطهاد والهوان ممن سوى الرحمن فهو قليل ومستهان.. !!. وفي كل موقفٍ تضحية.. ولكل تضحيةٍ ما يقابلها من القرب والْمَعِيَّة.. وللمعية ما يُجليِّها للعيان إعجازٌ وبرهان..

وقف وحده شامخا فتيا في مواجهة أهل الضلال والبهتان!!.. في يوم عيد خلدوه للآلهة الأصنام؛ فكسَّر آلهتهم وأنكى بأصنامهم وترك فيهم كبيرهم وحَمَّلَهُ على كاهله آلة التكسير والتحطيم إستهزاءً بهم واستخفافا لعلهم يتفكرون.. وإلى الرشد يعودون ويهتدون.. فهاجوا عليه وماجوا.. ولكنهم في مواجهته واسْتِجْوَابِهِ بُهتوا.. وتيقنوا جميعا أنهم مخطئون، وعن السَّوِيَّة يعدلون.. ولكنها العنجهية الكاذبة.. فأخذتهم العزة بالإثم.. والخوف على ضياع ماهم فيه من ثراء ورفاء خاصة الصناع للأصنام والأوثان، والقائمون عليها من التجار والكهان.. ولكنه بالإعجاز الجلى لم يمسه أحد منهم بخدش أو بسوء.. أو حتى بكلمة نابية تؤذيه، أو كاهِلُهُ منها - وبها - ينوء..

أوقدوا له نارا تكفي إبادة مملكتهم بل وتزيد.. واستمر في داخلها أربعين يوما أو خمسين.. ثم يخرج منها سالمًا معافًا وضَّاءً دون قيود..

استدعوه لمقابلة النمرود (ملك البلاد).. فذهب إليه في قصره.. كان للناظرين والحاضرين وحيدا.. يقف أما م النمرود الجالس على كرسي العرش، ومِنْ حَوْلِهِ ملأُه وحاشيته وصولجانه.. وهو وحده في عقر دارهم.. فيجادله النمرود، ويغلبه الخليل.. ويفحمه ويحقر أفكاره ومعتقده.. في غير هيبة ولا خوف ولا إزعاج.. ولم تأخذه على نفسه شفقة، ولا خوف هلاك.. فلا تطاوع أحدا منهم نفسه أن يمسه بسوء.. أو يخدشه بكلمة.. وكان من الممكن وهو حوزتهم وتحت كامل سيطرتهم أن يقتلوه..

أو حتى يسجنوه.. وهو في داخل قصرهم، وفي عقر دارهم وقرارهم مع كامل استعداداتهم.. وكان يكفي إشارة واحدة من النمرود لينتهي كل شيء ومنه يرتاحون.. ومما يسببه لهم من خوف وقلق ينجون.. ولكنهم لا يفعلون..

.. سبحان الله!!..

وفي رحلته الأولى إلى (حرّان) يواجه أهل البلاد جميعا وحده ويسفه أحلامهم وجها لوجه، ولا يستطيع أيٌّ منهم أن يسيئه.. ثم يغادرهم - بعد أن فقد الأمل فيهم - إلى مصر ومعه أهله وماله وتجارته كاملة غير منقوصة.. سبحان الله!!..

وفي مصر كان ما كان.. وهو الغريب فيها لا أهل ولا قرابة ولا خلان.. وما أشد البلوى وأفدحها إن وقعت في العرض.. وخرج وزوجته من هذه المحنة سالمان معافان ومعهما هاجر هدية ونافلة من الله.. سبحان الله!!!..

سبحان الله.. إنه ميزان الحب.. إنها مرتبة الخلة!!..

* * *

الابتلاء في مصر وجائزته

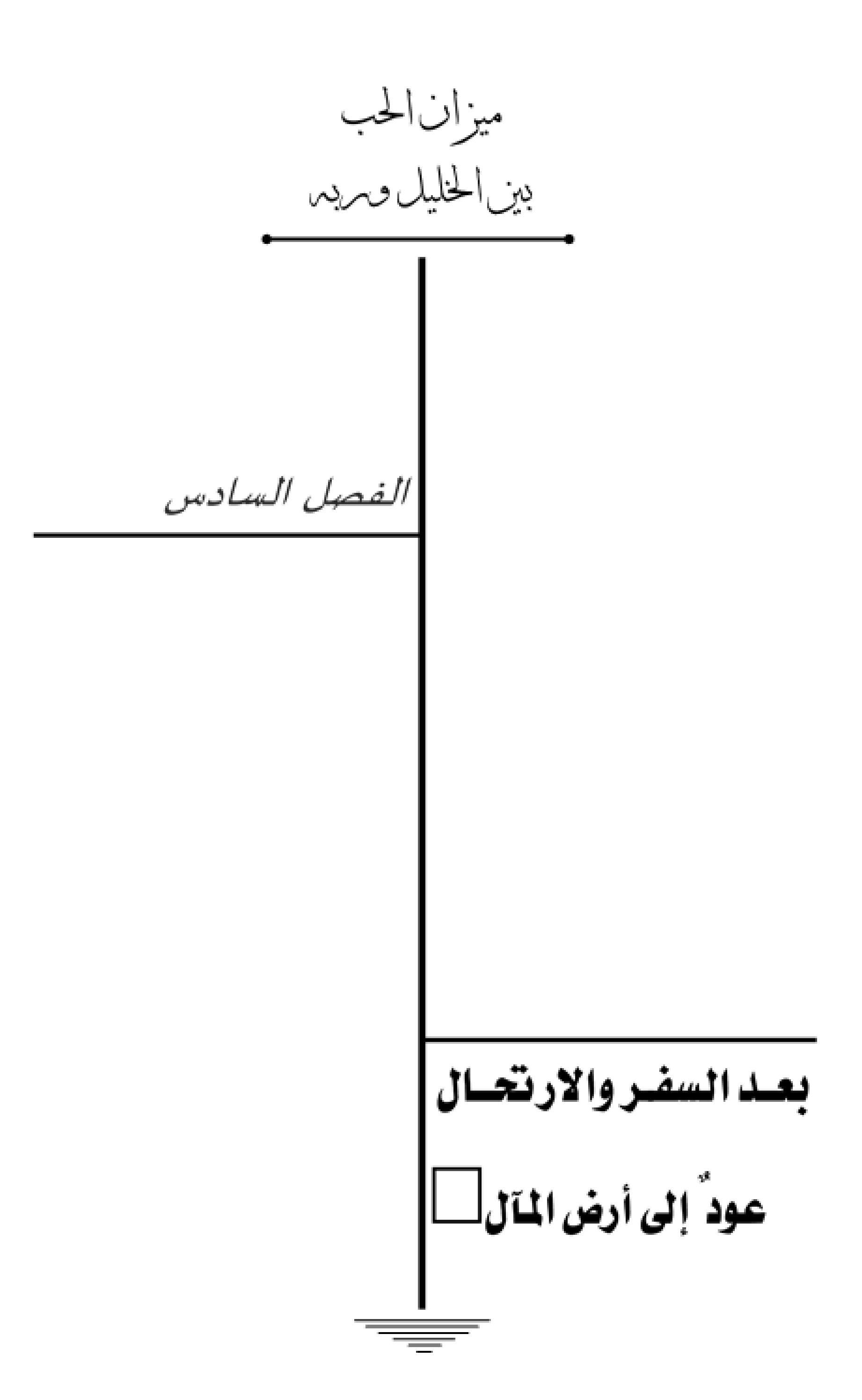
الابتلاء في مصر وجائزته

أناخ الرَّحْلَ إبْرهيمُ في مصر ::: يُمَنِّى الخيرَ للتوحيد والدين
وما كاد يحطُّ الرَّحل من نَصَبٍ ::: ليستجمع شتات الأمر والشَّان
بتدبيرٍ لتهيي ء تجارته ::: بحسن السمت والأخلاق والدين
إذْ الخطْبُ يلاحقه على عجلٍ ::: تطارده المعاناة بإتقان
فقد واشى الوشاة عند حاكمهم ::: بما في (سارة) من عودها البان
وحسنٍ في المْحَيَّا فاق ما شاع ::: عن الحسن وقَدٍّ غاز.. فتأَنَّ
فهبَّ الحاكم مستنهضًا من قد قرَّ ::: بَ.. هيًا بهِ.. في التَّوِّ يأتيني
فخَصْمُ اليوم في (مِصرَ) هُوَالفرعو ::: نُ مطبوعٌ بتنكيلٍ وطغيان
تلقَّى الأمرَ منه في مواجهةٍ ::: يريد الهتك للعِرض بتعيين
يرى السَّبْىَ لزوجته بدى حُكْمًا ::: يُدانيها بإبرامٍ وتمكين
وكيف المهرب وهو الغريب في الـ ::: ـورى في غير أهْلينَ وأعوان
ومن هذا الذي عند المليك يشـ ::: ـفعن للنائي عن أهلٍ وخلّان
فهب قائمًا يستنجد الرَّبَّ ::: ليحمي العِرض من ظلمٍ وعدوان
ففكَّ اللهُ أسر الزوجة من غيـ ::: ـر سوءٍ مسَّها.. فالحفظ ربَّاني
وجاءت تصْحَبُ في عَوْدِها (هاجر) ::: بإنعامٍ - من الله - وبرهان
فَ (سارة) قد حباها الله بالحفظ ::: فلم تُؤذى.. وما مُسَّت بنُكران
ونجَّاها من الظلم بإعجازٍ ::: وذا القصُر لها مأوىً إلى حين

فلم تُخدشْ حياءً في محيًّاها ::: وما سِيءَ بها مِنْ أيِّ إنسان
فقد فَلَّتْ ب (عملاقَ) حبائله ::: وقد باء بإفشالٍ وخسران
تهادَى فكان إن يَبْتغي القربَ ::: بمدٍّ الأيد.. شُلَّت دُون إتيان
وكان كُلَّما يسْعىَ إليها عا ::: وَدَتْهُ رعْدةُ الخوْف بِخُذْلان
وقال خيفةً في نفسه ما هـــ ::: ــذه - فيما أرى - قطٌّ بإنسان
وصاح بالقريبين.. خذوها - أبْ ::: ـعدوها - ما أراها غيْر شيطان
وأُهْدَتْ (هاجر) نفْلاً تُرافِقها ::: لتبقَى رهْن حاجتها بإحسان
وعادت في أمانٍ.. قد حباها اللـ ::: ــهُ بالأمن وتسليمٍ لبنيان
فإبراهيم قد أُسْعِفَ بمعجزةٍ ::: أحاطتْه لحفظِ العِرْض والشَّان
وكانت قدرةُ الرحمن تُوليِه ::: بتأمينٍ وإعفافٍ وتحصين
وعاد راعِيًا أمْرَ تجارِته ::: ليَجْني كَسْبَهُ مِنْ رِبْحِها الدَّاني
وبالصِّدق جنَى مالاً وأنْعامًا ::: وبات الأذْيَعَ صيتاً بإيقان
وكان صادقَ القوْلِ ومُؤتَمَناً ::: خصيمَ الغِشِّ.. ما كان بخوَّان
فأمَّ الناسُ مقْراهُ ليَبْتَاعُوا ::: و يَشْرُوا منْه في حُبٍّ ووجدان
فأوْحىَ الحِقْدُ للتُّجَّار تدبيراً ::: بتنكيلٍ به في مُرِّ عُدْوان
وقد أُغْرتْ صدورُهْموا مِنَ الحَسَدِ ::: فعادوه بإصرارٍ وإمعان
وكادوه ونارُ الحقد تُثْريهم ::: كراهيةً بإجلاءٍ وتبيان
وبعد السِّرِّ والكتمان في الغَدْر ::: تراءَى الشَّرُّ في جهْرٍ وإعلان
فضاق الصَّدْرُ والنَّفْسُ بما كادوا ::: وغادر مصر هَجْراً صَوْبَ (حرَّان)

* * *

* * *


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل السادس
بعد السفر والارتحال
عودٌ إلى أرض المآل

بعــد السفــر والارتحــال

عودٌ إلى أرض المآل

أراد الله - وقدَّر - منذ الأزل أن تكون أرض حرَّان " فلسطين " هىَ قلب الشام.. وعلى أرضها ومن حولها تدور رحى التبليغ للرسالة، ونشر الدين، ودعوة التوحيد.

فلسطين " حرَّان وقتئذ " كانت قلب البقعة من الأرض الآهلة بالناس.. المكتظة ازدحاماً.. المتمتعة بالإعمار، والنِّعم والأَنعام، والزروع والثمار؛ حيث الأنهار والبحيرات، والسهول والوديان، والبحار.. فهى أرض خصبة مأهولة يحيط بها الخصب والنماء من كل الجهات.. إمتدادها من جهة الشرق الأُرْ دُنّ؛ حيث نهر الأردن وتفريعاته والبحر الميت، وسوريا حيث نهر الفرات وتفريعاته.. يمتد من ورائها العراق شرقاً حيث نهرىّ دجلة والفرات وتفريعاتهما.. وامتدادها من جهة الشمال أرض لبنان؛ حيث نهر الليطاني ومن ورائها الإمتداد الشمالي لسوريا.. وامتدادها من جهة الجنوب أرض الحجاز حيث مكة والبيت الحرام (وكانت ملتقى تجارة الشمال والجنوب صيفا وشتاءً) ؛ وكذلك أرض سيناء (باب مصر والممر إليها) حيث جبل الطور، وجبل موسى، وعيون موسى (وظهرت أهميتها المدخرة منذ الأزل فيما بعد) امتداداً واتصالاً بأرض مصر حيث نهر النيل وواديه الخصيب والدلتا الطيبة الثرية بالخيرات.. وكانت مصر تمثل مركز التجمع التجاري، وملتقى التجار من الشرق والغرب والشمال والجنوب.. إضافة إلى وجود البحر الأحمر في الجنوب مخرجاً إلى جنوب العالم؛ وإلى الغرب منها البحر المتوسط مخرجاً إلى غرب العالم؛ ويمثله يومئذ أوروبَّا..

وبالرغم من أن نشأة الخليل أبي الأنبياء (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) كانت في أرض بابل " العراق "؛ إلاَّ أنَّ خط سير رحلته الشاقة بدأت بهروبه بدينه منها إلى أرض حرَّان " فلسطين " ومنها إلى مصر ثم العودة إلى حرَّان حيث كتب الله له فيها الإقامة والاستقرار.. ليتناسل فيها، وتدور مراحل الدعوة دوراتها بمن حملوها من ذراريٍ منبثقة من صلبه الطاهر من الأنبياء والمرسلين (عليهم جميعاً وعلى خاتمهم الصلاة والسلام) على مر الدهور والأزمان..

فكانت شعلة الدعوة ورايتها تدور وتتنقل حول القدس على مراحل يتلو بعضها بعضاً، من جنوب سوريا وغرب الأُردُن وأرض سيناء ومصر وعمق الغرب من وسط أرض الحجاز حيث كانت نهاية المطاف بالدعوة الخالدة، والرسالة الخاتمة مع خاتم الأ نبياء والمرسلين محمد النبي الأمي (عليه الصلاة والسلام).

ولقد خص الله (سبحانه وتعالى) أرض فلسطين بالتيمن والتَّبرُّكات، وجعلها أرضاً طاهرةً مقدسة{ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10) } [الإسراء: ١].

فقد أراد الله أن يكون المسجد الأقصى في أرض القدس في فلسطين (حرَّان).. وقد أقيم هذا المسجد على عَيْن المكان الذي حدده يعقوب (عليه االسلام) في رحلة هروبه الشهيرة إلى " فدَّان آرام " من أرض العراق إلى حيث أخواله خوفاً من بطش أخيه " عيصو " (ويسميه العرب " العيص ")، وهو الإبن البكر لأبيه إسحاق بن إبراهيم الخليل (على نبينا وعليه الصلاة والسلام).. (وهذه الواقعة لها حكاية ليس هذا مقامها)..

نقول.. وبالله التوفيق.. أن يعقوب في رحلة هروبه هذه.. إذ قد بدأها من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع.. فنام فيه متوسداً حجراً تحت رأسه، فرأى في نومه معراجاً منصوباً واصلاً بين الأرض والسماء، وإذ بالملائكة يصعدون فيه وينزلون؛ والرَّبُّ (سبحانه وتعالى) يخاطبه، ويقول له: " إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك ".. وكان هذا سببًا في إقامة البناء في ذات المكان.. وسماه " بيت إيل (أى " بيت الله ") وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب (عليه السلام).. وحول هذا المكان كان بعثٌ كثير من الأنبياء والرسل.. وبالطبع كلهم من نسل الخليل (على نبينا وعليه الصلاة والسلام).

* * *

عودٌ على بدء

قلنا لمَّا ضاق المقام بإبراهيم في أرض مصر بسبب ما تعرض له من اضطهاد وتضييق من تجارها (غيرة لما كان له من شهرة، وطيب سمعة، وما حقق من ثراء من تجارته.. إذ أن هذا الوافد إلى بلادهم من أرض الشام أصبح أكثرهم مالاً، وأقناهم أنعامًا، وأسبقهم أعداداً من الموالي والعبيد).. فقد حزَّم أمتعته، وجمع ماله، وحمَّل رحاله، وصحب مواليه، وضرب في الأرض عائداً إلى حرَّان، ترافقه امرأته سارة ومولاتها هاجر وابن عمه لوط الذي كان في صحبته منذ بداية الرحلة وحتى مقر المقام في حرَّان (وكان هو الآخر قد حقق من المال الكثير) وقد صحب الخليل في رحلة العودة هذه أيضاً كل من آمن بدعوته.. وهم قليل..

بعد حين من الزمن - ليس بالطويل ولا بالبعيد - أمر الخليلُ لوطًا أن ينزح بماله إلى أرض الغور (ويسمى " غور زغر ") ليقيم هناك، ويعمل على هداية أهل هذه البلاد حيث نما إلى سمعه، وتيقن عنده العلم بأنهم أهل فجر وضلال، وكفر وفسوق، وانحلال.. فلبَّى لوط الأمر، وارتحل إليها صاحباً أهله وبناته، وقد استقر به المقام في مدينة سَدوم (وهىَ مدينة تقع قريبا من الساحل الجنوبي الغربي للبحر الميت بالأردُنّ) وكانت في ذلك الزمان عاصمة تلك البلاد.. وقد اتخذها مركزاً لنشردعوته.. فقد كانوا من شرار الناس وأشرارهم.. وشكت جنبات الأرض من فساد أخلاقهم، وانحطاط أعرافهم..

* * *

بشرى الإله الجليل.. بعمومية دعوة الخليل

أوحى الله (سبحانه وتعالى) إلى الخليل (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) بأن يمدَّ بصره في أنحاء المعمورة (شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا) وبشره بأن هذه الأرض كلها وعلى امتداد بصره في جميع الاتجاهات سيجعلها الله (سبحانه وتعالى) له، ولخلفه من بعده إلى آخر الدَّهر.. وبشره بأنه سيكثر ذريته.. (وعليك أخي الحبيب أن تتبصر هذه البشارة وتستحضر مغزاها، وتوثيق اتصالها بأمة الحبيب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).. فقد ورد في صحيح الحديث عن الصادق المصدوق ◘ أنه قال: ♂إن الله زوى لِيَ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها▬.. وكيف لا؟!! أليس هو آخر الأنبياء من ذرية خليل الرحمن (عليه السلام).. وهو نهاية امتداده وغايته.. اتصالاً باتصال.. وتمامًا بتمام.

* * *

الخليل بإيمانه المعلوم.. فَكَّ لوطاً من الأسر في سَدوم

استجابةً لأمر الخليل نزل لوط بمدينة سَدوم، وبدأ يرقب سلوكيات أهلها وقاطنيها وروَّادها.. وقد خلص بذلك إلى أنهم أناسٌ لا خلاق لهم، ولا منكر عندهم.. منغمسون في جُبٍّ للفساد مُتْرَعٍ بشتى انحطاطات الأخلاق تنطوي نفوسهم على خبث النوايا وخبائث الضمائر.. في إصرارٍ غير مسبوق علي استمراء المعاصى؛ بل قُلْ إدمانها دون زجر من عقاب أو حياء أو استحياء.. يتسابقون في مضمار فعل المنكرات دون تعفف أو تَسَتُّر.. فقد كانوا يمارسون الفاحشةعلانيةً جهاراً ويتباهون بها في منتدياتهم ليلاً ونهاراً.. فكل شيءٍ من السوء عندهم مباح.. وكل مُحَرَّم في عرفهم مستباح.. ليس فيهم منكِرٌ للمنكَرات ولا ذامٌّ للمذمومات ولا مُقبِّحٌ للمقبوحات.. فهم قومٌ غارقون في بحار السوء يتلاطمون أمواج الفواحش والسيئات.. منغمسون ومُتَشَرِّبون استساغةً شتَّى الموبقات.. وَالِجُونَ أبواباً من الفواحش استحدثوها ماكان يعرفها من كان قبلهم من إنس!!.. وانقاد إليها بقيادهم كلُّ فاسد من بعدهم آت.. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليِّ العظيم..

لقد كانوا في زمانهم هذا أقبح الناس وأفجرهم على الإطلاق.. بل إن شئت فقل؛ إنَّ الفجر نفسه كان يتمثل فيهم مُشَخَّصا أقبح تشخيص.. فقد كانوا أهلاً لكل قبيحة، ولكل ناقصةٍ وخسيسة، وكل منكَرٍ ورذيلة.. وكانت سيرتهم أسوأ سيرة.. وضمائرهم مغلقة على سوء طويَّة وأخبث سريرة.. قطاعين للطرق أفَّاكين.. خائنين للصداقة؛ فلا صديق ولا رفيق.. يجتمعون على أبناء السبيل فيسلبون أمتعتهم وأموالهم، ويستاقون أنعامهم دون رحمة.. لايرُدُّهم عن ذلك رجاءٌ أواسترحام.. ولا تأخذهم شفقة من تَضَرُّعٍ أو بكاء.. لا دين لهم، ولا حياء عندهم.. لا يُجدي معهم وعظ واعظ؛ ولا نصح ناصح (إن وجد أو كان).. فقد عزَّ وجود الواعظ بينهم، ومات الناصحون غرقى في خضم بحار آثامهم.. فاستمرءوا الفواحش والموبقات.. ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه..

بعد أن تأكد لوطٌ من فساد أوضاعهم، وفجر أعرافهم، وعُتُوِّ الكفر وانتشاره فيما بينهم.. وسريان شريعة الإجرام وتأصلها في سلوكياتهم.. أدرك أن الأمر جَدُّ خطير.. ولا بد من التصدي لهذا الفساد وتحجيمه - إن لم يكن استئصاله - بين العباد.. ولعلَّ الله أن يهديهم.. فينصلح الحال بينهم.. ويهتدون إلى الصراط السويّ.. ويخافون بطش الله العزيز القويّ.. وقد حكى لنا القرآن العظيم في غيرموضع من صريح الآيات ماكان عليه هؤلاء الجبابرة من الآثام والطغيان.. فانظر معي بعين عقلك ونُهاك.. واستبصر بعين قلبك وبصيرة فؤادك ما ورد في هذه الآيات؛ جامعة لأبرز ما كانوا يقومون به من رذائل الفعال، وشائنات الأعمال.. وما كان يدور بينهم في ناديهم ومنتدياتهم من سيِّء المنكرات.. يحكي لنا القرآن العظيم ما كانوا عليه، فيقول:

{ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)} [العنكبوت: ٢٨ - ٣٠].

ولما كانت الفاحشة المُغَلَّظة المستحدثة فيهم من إتيانهم الرجال من دون النساء تنم عن خطر عظيم.. لذا فقد تكرر نصحهم وزجرهم مرارًا علَّهم عنها يرجعون، وإلى رشدهم يثوبون.. وقد تكرر هذا المشهد في العديد من سور القرآن العظيم وآياته.. وإن شئت فارجع إليها لتزداد علماً بما كانوا يُنْصَحُون به، وبما كانوا على لوطٍ يُجيبون ويَرُدُّون.. وها هِىَ الآيات حسب ترتيب السُّورات التي فيها وردت:

1- { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) } [الأعراف: ٨٠ - ٨٢].

2- { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) } [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٧].

3- { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) } [النمل: ٥٤ - ٥٦].

4- { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (34) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39) } [القمر: ٣٣ - ٣٩].

* * *

مصيــر الداعيــة إلـــى الفضائـــل..في مرتع الفحش والرذائل

بدأ لوط (عليه السلام) دعوته بينهم بالحسنى، ولين الجانب، ورقيق الكلام.. ثم واجههم بالحجة.. وعدم قابلية أحدهم أن يُمَسَّ أيٌّ من أهله بمثل ما يفعلون.. أو يُعْتَرَضَ في طريقه ويسلب متاعه أو ماله.. فوضح لهم السبيل السويّ.. وسبل القيام على الصراط المستقيم.. وفوائد التحليّ بفضائل الأخلاق، وذم الظلم والطغيان.. وبين لهم سوء العاقبة لما هم عليه قائمون.. وبين لهم خيرالعاقبة، وحسن المآل للمهتدين - بما يدعوهم إليه - إلى الصراط السوي المستقيم.. وتكرر النصح.. وتعددت صور الحوار، وأساليب الهداية والإرشاد.. فضاقت لما يدعوهم إليه صدورهم؛ ولم تتسع لقبول النصح منه.. ولم يرُق كلامه لمسامعهم.. ولم تتشرب شيئا من هدايته قلوبهم.. وبدأوا ينكرونه شخصاً.. ويزدرونه هيئة.. ويمقتون وجوده بينهم!!.. وبدأوا يفكرون في الخلاص منه!!.. وكما هم متعودون؛ بل محترفون في أساليب الإجرام؛ تآمروا عليه.. إذ تسلط عليه طائفة من الجبابرة منهم.. فاجتمعوا عليه، وأسروه، وسلبوا أمواله التي جاء بها إليهم (إذ أنه رحل إلى ديارهم بما يملك من مال وأنعام)..

بلغت هذه الأخبار السيئة إبراهيم الخليل (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) ؛ فأعد عدته، وجند جنده حتى كان جيشاً من ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً من المؤمنين (من الذين استجابوا لدعوته وآمنوا برسالته وجاءوا معه من مصر، والذين اتبعوه بعد إقامته في حرَّان)، وسار بهم إلى سدوم حيث ابن أخيه لوط؛ فاستنقذه من الأسر، واسترد إليه أمواله وأنعامه من الطغاة الجبارين.. وأعلنها عليهم حربا فاصلة تطهر منهم البلاد والعباد.. فقتل منهم الكثير.. وهزمهم شر هزيمة.. وظهر عليهم أتم ظهور.. وتابع الفارين منهم (وهم شرذمة قليلون) وهم مدبرون أمامه يرجون النجاة من القتل والهلاك؛ من هول مالاقوا من عذاب وضرب بالأعناق.. وقد استمر في تتبع آثارهم حتى وصل إلى شمال دمشق في إثرهم وعسكر بظاهرها الشمالي ينتظر منهم محاولةً لعودة؛ ليجهز على ماكان قد بقِيَ منهم.. وظل في معسكره برجاله المؤمنين عند بلدة " برزة " بشمال دمشق.. وبعد أن تأكد لديه استقرار الأمر.. وذيوع الأمان والأمن؛ رجع مؤيدا وجنوده بنصر الله القويّ العزيز.. ذاع صيته بين الملوك والحكام؛ كما ذيع بين الرعايا والرعاع.. فكان في طريق عودته يُقابَلُ مُعَظمًا ومُكَرَّمًا من ملوك البلاد التي مر بها.. كانوا له مكرمين.. ولسلطانه الرباني وهيبة إيمانه خاضعين.. وانتهى به المسير حيث مقر موطنه وإقامته (حرَّان) مرهوب الجانب من الأعداء.. مكنون التعظيم منهم والولاء..

* * *

الخليل من دار المقر.. حرَّر لوطاً ممن فَجَر

الخليل من دار المقر.. حرَّر لوطاً ممن فَجَر

ولله لِمَا قدْ أحْكَمَ أمرٌ ::: تَبدَّى حِكْمَةً.. نُوراً وتِبْيانا
فأرضٌ خصَّها اللهُ بـ " حرَّان " ::: لتحوي الطُّهْرَ.. وُجدانًا وبنْيانا
إذِ الأقصَى يُقامُ فيها تعييناً ::: لذا.. قد خَصَّ إبراهيم " حرَّانا "
فذي الأرضُ حباها الله تقديساً ::: وتعظيماً لشأنٍ يحوي برهانا
ومقدورٌ لها بالْيُمْنِ خيْراتٌ ::: بخُطواتٍ لرُسْل الله.. رُدْفانا
وحول القدس بركاتٌ من المولى ::: يُزَكِّيها ببعث الرُّسْل أزمانا
هُمُوا الأخْيارُمن نسل الخليل صَرْ ::: حُهُم بمُحَمَّدٍ قد تمَّ بنيانا
إلى الأقصى أتَوْا تَتْرَى ::: وكان أحمدُ ختماً لِمَا كانا
أقاموا خلفه في الأقصى - لله - ::: صَلاةَ العَهْد.. تُنْبي بالَّذي كانا
لإظهارٍ لما في اللَّوْح قد خُطَّ ::: أتَى اللهُ بهِ.. آواهُ " حرَّانا "
وذاق الأمنَ في العْيش.. رَدِيفًا لِلْـ ::: ـجهاد.. بعدَ ما قدْ عانىَ ما عانى
وقد رافقهُ مَنْ آخاهُ في الدِّين ::: بصِدْقِ النَّهْجِ.. والتَّسْليم إيمانا
وبَعْدَ الْحِين.. آتاهُ مِنَ الأ نْبا ::: ءِ - عن لوطٍ - جَوىً أضْناه أحْزانا
فأهْلُ الظُّلْم ساقوه إلى الأسْر ::: رهين السِّجْن.. حُرَّاسًا وجُدْرانا
وَ مِنْ أملاكه قدْ جُرِّدَ غَدْراً ::: وَ كُلَّ المال قد غَلُّوهُ عُدْوانا
فقام.. جَنَّدَ الجُنْدَ.. بِمَنْ معه ::: لنصْرَته.. وَهَبَّ الجمعُ إخْوانا
وَفَكَّ الأسْرُ عنْ لوطٍ.. بتقتيلٍ ::: لأهل الظُّلم.. تأديبًا.. وإمعانا
و طال الضَّربُ بالأعداء تنكيلاً ::: وكان النصر بالإيمان بُرْهانا
قليلُ الجُند بالإيمان قدْ قَهَروا ::: كثيرَ الجُند طغيانًا وكُفرانا
وخاف النَّاسُ إبراهيمَ مِنْ بأْسٍ ::: وجيشُ الظُّلم فيهم بات خَسْرانا
و أهلُ الحُكْمِ في الأملاك قد باتوا ::: برُعْبٍ مِنْ خليل الله.. مُذْ با نا
فأهلُ الكُفر والشَّرِّ.. وَإنْ كَثُروا ::: ضِعافٌ قَلَّدوا ظُلْمًا وبُهتانا
تَرى الأحْقادَ فيما بينهم تَسْري ::: تراهم في الْوَغَى جُبْنًا وخُذْلانا

* * *

* * *

ميزان الحب

بين الخليل وربه

الفصل السابع

قدَرُ الخليل .. تَفرُّغٌ للخلة ..

لا يشغله عن ربه □

ارتحـــالٌ أوْ حِلَّـــة□

قدَرُ الخليل .. تَفرُّغٌ للخلة ..

لا يشغله عن ربه .. ارتحالٌ أوْ حِلة

عُمِّر الخليل مئتين وخمسين عاماً.. منذ أن أوجده الله على هذه الأرض وحتى تمام أجله.. وقد خلقه الله لنفسه (سبحانه وتعالى) وذاته (جل وعلا).. فاستعمله في الأرض منذ نشأته في نشر دعوته وتبليغ رسالته.. فقد أتاه الله رشده صبيًّا.. هداه ووفقه لهدايته فاهتدى بهديه إلى الصراط المستقيم.. علَّمه التوحيد.. وحاباه بالإيمان منذ كان فتىً صبيًّا.. فكان أول مؤمن على وجه الأرض في زمانه وعصره.. وكلَّفه بالعمل لهداية الخلق بما هداه الله إليه من عظيم هداية.. ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في قرآنه العظيم في سورة الأنبياء إشارة إلى هداية الخليل واجتبائه (في الآية 51 من ذات السورة) فيقول:{ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) }

أى أن عناية الله كانت ملازمة له منذ ولادته.ولأن الله قدَّر لإبراهيم أن يكون هو الداعية الأوحد لرسالة التوحيد في العصر الذي ولد فيه؛ فقد أفرغه لذلك.. فقد جعل له زوجا عاقر لا تلد، وهداها له، ووفقها للإيمان معه.. فلم يشغله شيءٌ غير تجارة اتخذها وسيلة لنشر الدعوة بين الناس.. وكانت سارة (زوجته) أول من آمن برسالته من النساء؛ كما أنه لم يؤمن بدعوته من الرجال سوى ابن عمه (لوط ابن هاران؛ والتي سميت حران نسبة إليه)؛ ولم يكن من مؤمن بدعوته على وجه البسيطة غيرهما طوال رحلات تنقلاته وشديد معاناته منذ أن كسَّر الأصنام وحتى العودة الأخيرة إلى حرَّان وبصحبتهم مولاتها (هاجر) المصرية غير القلة القليلة التي هداها الله للإيمان من مصر وشاركتهم الرحيل إلى حران في رحلة العودة..

كان ثلاثتهم هم المؤمنون الموحدون لله من دون العالم أجمع الذي ساده الكفر والشرك (... ولا تحاول أن تحصي أو تعد ما كان في الناس من المخالفات بعد ذلك.. فليس بعد الكفر ذنب - كما يقولون - يذكر بجانبه.. ولو كان الإيمانُ لانصلح الشَّان.. ونقيت من جميع المعاصي والمخالفات سائر المجتمعات...)

كان عقم سارة يشغلها.. وخاصة مع تمني إبراهيم على ربه أن يهبه ذرية طيبة (وكان لها مثال الزوج الوفي.. فقد أمكن الله حبها من قلبه ليتمسك بها مع تيقنه بأنها لا تنجب.. وأمكن الله الإيمان من قلبها، فلا تستغني عنه، وإنما تتفرغ للعمل علي تدبير أمر راحته.. غير أنها كانت تتمنى أن يكون لإبراهيم منها الولد الذي يتمنى.. مع أكيد إدراكها لحالها الذي كانت عليه من العقم والكبر الذي أخذ منها مأخذه ولا يرجى معه منها الولد)، فكان إبراهيم - مع علمه بكل هذه الأسباب المانعة - يسأل الله الذرية الطيبة عالما بأنه (سبحانه وتعالى) على كل شيءٍ قدير.. ولمَّا كان الله بشره بذلك.. فقد عاش على أمل البشرى.. يدعوالله ويلح في دعائه؛ آملاً في عطائه.. وجعل وسيلته كثرة ذكره ودوام صلاته وابتهالاته.. فكان لله دائم الذكر، وبعبادته دائم الإنشغال.

لماً عاد إبراهيم بمن معه من أهله وبمن آمن واستقر الجميع ببيت المقدس.. وبعد أن مرعليه عشرون سنة.. وحال سارة على ما هو عليه من العقم.. عزَّ عليها أن تقابل وفاء إبراهيم لها بحرمانه الولد.. حيث أبت عليه نفسه أن يتزوج عليها بأخرى حفظًا لكرامتها وصونًا لمعزتها عنده؛ فقالت له: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أَمتَي هاجر لعل الله يرزقنا منها ولداً يُسرِّي عنا لوعة الوحدة.. ويكون سببا لإسعادنا فيما نحن فيه.. فوهبتها له.. فدخل بها.. فحملت منه..

وقد ورد في بعض كتب السيرة عن أهل الكتاب: أن هاجر لمَّا حملت من إبراهيم ارتفعت نفسُها وتعاظمت على سيدتها (سارة) التي غارت منها (وهكذا حال النساء) ؛ فشكت إلى إبراهيم.. فقال لها: افعلي بها ماشئت.. فخافت هاجر وهربت حيث نزلت عند عين ماءٍ في مكان قصيٍّ.. وهيَ هناك سمعت ملكاً من الملائكة يقول لها: لا تخافي؛ فإن الله جاعلٌ من هذا الغلام الذي حملتي خيراً، وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ولداً وتسميه إسماعيل.. وستكون يده على الكل.. ويد الكل به.. ويملك جميع بلاد إخوته.. فشكرت الله عز وجل على ذلك.. وقفلت عائدة إليهما..

(وهنا نقف وقفة واجبة.. فإسماعيل هو جد النبيِّ محمد ◘، ومحمد ◘ هو الذي سادت به العرب، وملكت جميع البلاد شرقاً وغرباً، وآتاها الله من العلم النافع والأعمال الصالحة ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم، وكانت بعثته عامة إلى جميع أهل الأرض إلى يوم الدين).

* * *

اختلال كفتيّ الميزان.. بين الخليل والرحمن

وقت أن ولدت هاجر إسماعيل كان لإبراهيم من العمر ستٌّ وثمانون سنة.. وكان إسماعيل غلاماً ذكياً؛ فانتعشت نفس إبراهيم.. وقرت عينه به.. وأخذت محبته بركن من قلبه وفؤاده.. (وكان القلب كله من قبل قصراً على الرحمن " سبحانه وتعالى ".. غير مشغولٍ إلاَّ به.. وليس يشاركه فيه شيءٌ سواه) وهنا حدث الاختلال في توازن كفتيِّ ميزان الحب بين الخليل وربِّه.. وكان لابد للكفتين من الاتزان.. سواءً بسواءٍ.. فيسلم القلب جميعه ويخلص للرحمن.. ولا ينازعه فيه شريك مهما كان.. ولو بالشيء اليسير لصغيرٍ أو كبير.. فسلط الله الغيرة على قلب سارة فدبت فيه وسكنت.. وأصابها القلق والاضطراب الذي بدوره سبَّبَ لها الأحزان والأشجان في أعظم ما تتجلى فيه صورها.. فأصبحت لا تطيق النظر إلى الغلام!!..، ولا تحتمل رؤية هاجر!!.. فضلاً عن سماع صوتها!!.. سبحان الله!!.. لقد جعل الله لكل شيءٍ سبباً!!..

اشتدت الغيرة بسارة، وطلبت علانية من الخليل أن يُغَيِّبَ وجه هاجر (عليها السلام) عنها هىَ وولدَها.. وطلبت منه أن يذهب بهما إلى أقصى الأماكن حتى لا يصل إلى مسمعها شيءٌ من صوتهما.. (فكل شيءٍ قد قُدِّر تقديرا).. سبحان الله العظيم!!..

أذعن الخليل لإرادة سارة ومطلبها.. ولعل الله أوحى إليه أن يطيع أمرها.. ويستجيب إلى رجائها لأمرٍ كان قدَّرَه.. فركب دابته واصطحب الغلام الرضيع وأمه وسار بهما.. ترشده إرادة الله.. فامتد به الطريق، وطال به المسير حتى انتهى به إلى مكان البيت " المكان الذي رفعت عليه القواعد للبيت فيما بعد ذلك " فكانت هذه البقعة هي أرض مكة المكرمة.. فأنزل هاجر وطفلها في هذا المكان القفر، والأرض الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء!!.. كان مُسَيَّراً بإرادة الله.. لا رأْىَ له ولا دخل فيما يحدث وما يجري من الأحوال والأفعال..

ترك إبراهيمُ هذين الضعيفين في هذا المكان لا يملكان شيئا سوى القليل من الزاد، وسقاء فيه شيءٌ من الماء كان استحضره معه ليتركه لهما عند قفوله عنهما في العودة والإياب!!.. وكان الأعظم من ذلك ما كان عندها من كثير إيمان بالله.. يعمر قلبَها.. ويغمر نفسها!!... وإليك هذا المشهد العجيب الذي يُظْهِر نَزْع التَّعَلُّق من قلب الخليل الذي كان مُتَمَكِّناً منه الوليدُ الحبيبُ.. لقد غلبت الخلة تعلق الشيءِ اليسير من قلب الخليل بغير الرحمن حتى ولو كان لولده.. ليعود ميزان الحب إلى اتزانه.. فاشهد معي ما جرى عند الوداع!!

لماَّ ترك إبراهيم هاجر وولدها، وولىَّ ظهره راجعاً.. قامت إليه هاجر تستعطفه وتسترحمه ليصحبها هي وولدهُ في العودة.. فتعلقت بثيابه قائلة: يا إبراهيم. أين تذهب وتدعنا ها هنا وليس معنا ما يكفينا؟!!.. فلم يجبها " هذا الذي كان يتمنى الولد وينتظره.. انقلبت الصورة وتغير الحال.. إنه الوحي.. بل قل إنها الخلة.. فلمَّا ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له: آلله أمرك بهذا؟!!.. قال: نعم.. قالت: فإذَنْ لا يُضَيِّعنا!!..

ويؤيد هذا ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس من حديث طويل قال: (... ثمَّ جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهيَ ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء... ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء.. ثمَّ قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء؟!!. فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.. فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت (أى مكان البيت) ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال:{ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) } [إبراهيم: ٣٧].

استسلم الخليل (كما جَبَلَهُ مولاه) لقضاء الله، واستجاب لما أوحىَ إليه حيث هداه وآل به إلى هذه البقعة البلقع.. فترك فيها وليده الرضيع مع أمه الضعيفة في قفار أرضٍ صحراء.. لا عشب فيها ولا زرع ولا ماء ولا إنس ولا حيوان.. ولكنه الحب، والطاعة الواجبة لتتساوى كفتا ميزان الحب بين الخليل والرب.. ويَسْلَمَ القلبُ من تعلقه بوليده الذي رزقه به الرب على كبر.

ويحفظ الله الوليد في هذه المتاهة من الصحراء (أطاع الخليل للأمر.. برغم ما كان في قلبه من تعلق بالوليد الذي رُزِقَه عن شوق وتمني!!.. والذي سبق أن بشره الله به وبذرية طيبة!!.. فكان لا بد من حفظ الوليد بإعجاز يكافيء طاعة وتضحية الخليل طاعة للرب الجليل!!).. فكان العجب العجاب!!.. وإعجاز الإعجاز!!.. للخليل إذ للإختبار اجتاز!!.. وللخلة للرحمن انتصر وانحاز!!.. فنجح في الإمتحان!!.. واستحقاقه للخلة وضح في أفصح بيان!!.. فأسعف اللهُ الوليد وأمه بأن أرسل الملك مأموراً ليضرب تحت قدمي الرضيع الباكي شكاية من الظمأ وانقطاع الرضاع؛ لتنفجرعين زمزم عن أطهر ماء!!.. وأقدس طعم وشراب!!؟.. وقد كان!!.. ماء هو طعام طعم.. وشفاء سقم.. لمن شرب منه على أيّ خير أراده ونواه!!.. كما أخبرنا خير خلق الله.. محمد رسول الله.. (سواء نوى الشارب منه زيادة العلم.. أو شفاء من مرض.. أيّ شيء نواه.. بشر به.. وبفضل الله ناله، وبقدرته والاه.. ومن كل خير سأل رزقه الله وأعطاه!!.. كرامة إعجاز.. وإعجاز كرامة مصداقا لقول الصادق المصدوق: ♂ماء زمزم لما شرب له▬.

جاء الماء.. وجعله الله باب رخاء.. يدخل معه على الوليد وأمه أسباب البقاء.. فأناس يقدمون.. وللطعام يزرعون ويحصدون.. وللأشجار يغرسون.. وتأنس ووليدها بهم.. وبهما يأنسون!!.

جاء الماء بفضل الله.. فحام الطير حوله تنبيها لطالبي الماء.. فجاءت من قبيلة جرهم جماعات تلتها جماعات؛ على إثر تحرك الطير وحطه على المكان الذي تفجر فيه الماء.. تتبعوا أثره وخط طيرانه واتجاهه.. فجاءوا وأمُّوا المكان الذي دار فوقه دورته وحط عليه من سماه وعلاه!!.. استأذنوا صاحبة الماء (هاجر وولدها الرضيع) في السكنى معها والبقاء!!.. فأذنت لهم هروبا من الوحشة والوحدة ورغبة ومحبة في الإئتناس!!.. ولكنها اشترطت عليهم!!.. وحق لها أن تشترط على من أراد عندها السكنى والبقاء!!.. اشترطت عليهم أن: لاحق لكم عندنا في الماء!!.. قالوا: نعم!!.. (تأمل الإعجاز " جمع غفير قوى.. في مُقَابِلِهِ.. امرأة ضعيفة وطفل رضيع.. فيخضع الجميع لأمرها!!.. ويَرْجَح عليهم قوْلُها!!.. " وكان من السهل لهم التغلب عليها وطردها هيَ ووليدها، والإستئثار بالماء وبالمكان وما حوله من دونها!!.. ولكنه الإعجاز وخلة الرحمن!!..).

عن ابن عباس: " قال النبيُّ ◘ في بعض حديث له: ♂... فألفى ذلك أم إسماعيل وهىَ تحب الإنس.. فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان.. بل أهل أبيات منهم▬.

وكانوا أهل رعي وزراعة.. فزرعوا الأرض وعمروها بغرس الأشجار.. وبذر الثمار.. فكان الماء!!.. وكان الغذاء!!.. وكان الإنس والونيس (إجابة إعجاز!!.. ومعجزة إجابة من المولى الذي جعل لخليله لكل دعوة ومطلب.. إنجازاً يفوق في تحقيقه كل مطلب!!..)..

{ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) } [إبراهيم: ٣٧].

* * *

تعادلتا كفَّتا الميزان، وتساوَيَتا..

كفة الخليل يمثلها: دعاءٌ لله كله تسليم لقضائه.. توجيه قلبه لمولاه سليماً لا تشوبه شائبة تَعَلُّقٍ لأيٍّ من دون الله.. لم يعد يشغل القلب سوى الله، واستجداء رضاه (أخلى الخليل الذمة من الوليد وأمه فسلمهما لمالكهما وانتهى أمره إلى خالقه؛ فليس له سواه، ولا يهمه ويشغله سوى نيل رضاه.

وكفة الرحمن يمثلها: إعجازٌ تِلْوَ إعجاز.. من تحت رِجْلَيِ الرضيع ينبع أطهر وأنفع ماء وأرجاه.. أهلٌ يأتون من أقصى الجنوب مُدَثَّرونَ بالتُّقَى والصِّدْق والأمان (فيكونون لها ووليدها أهلاً وعشيرة.. ثمَّ بعد أن يكبر إسماعيل فيتزوج منهم).. غرس أشجار، وزرعٌ وحصاد.. توفيرماء وغذاء وأهل وقرار!!.. سبحان الله!!.. سبحان الله!!.. إنها الخلة!!.. إنها الخلة التي قدَّرَها الله وخصَّ بها إبراهيم وأرادها سبحانه وتعالى له منذ جاء به إلى هذه الحياة.. فكيف يخل بها الخليل وقد أرادها - أن تكون هكذا - الله!!.. إنها أسباب لإبراز المعجزات!!.. وإظهار الإصطفائيات!!... فسبحان الله!!.. ويا سبحان الله!!.. والحمد لله!!..

اطمأن قلب الخليل لِماَ نمى إليه ورآه.. فسكنت نفسه، وفرغ قلبه من الأغيار، وتفرغ لذكر الله.. فلم يعد متعلقا بغير الله.. ولم يبق فيه ساكن سوى الله.. عاد العرش لمليكه ومولاه سالما سليماً مما سواه.. الله!!.. الله!!.. إنها الخُلَّة!!.. ويالها من حُلَّة يُدَثَّرُها ويتحلَّى بها خليل الرحمن!!..

* * *

نزع التعلق بالوليد.. ليفرغ لله قلب المريد

بعْدَ عشرين قضاها ::: الخليلُ بعْدَ مَرْجِـعْ

حيْثُ حَّران مَقَرٌّ ::: ضمَّهُ فيها تَجَمُّعْ

يعبدُ اللهَ أُ ناسٌ ::: في خشوع.. في تَضَرُّعْ

والخليلُ أبْدى ضَعْفـًا ::: في عِيِيٍّ العمر يَضْرَعْ

واهِنُ العظْم رقيقـًا ::: في عِداد من يُوَدِّعْ

والشَّبابُ قدْ تَوَلىَّ ::: ذاهبًا مِنْ غيْرِ مَرْجِـعْ

عَاوَدَ العَبْدَ حِنينٌ ::: للذ رَارِي حيْثُ يَطْمَعْ

◌َأنْكَحَتْهُ (هاجرَ) (سَارَّةُ) ::: حَرْثَ نَسْلٍ حيْثُ يَزْرَعْ

بَعْدَ حَمْل مِنْ نِكاح ::: بالأماني جاءَ يُسْرِعْ

قد أتاه ما تَمَنَّى ::: في الشَّباب مِنْ تَطَلُّعْ

بعْدَ أنْ وَلىَّ الزَّمانُ ::: عَنْ بِناءٍ قدْ تَصَدَّعْ

أُرْزِقَ طِفْلاً وَلِيدًا ::: مِنْ رُآهُ العَيْنُ تَلْمَعْ

جاءه بعد انتظارٍ ::: طالَ كلَّ العمْر أجْمَعْ

مِنْ سُرور واشْتِياق ::: في الفُؤادِ قدْ تَرَبَّعْ

بَسْمَة مِنْهُ تُداوِي ::: كُلَّ◌َ◌َ◌َ حُزْن أوْ تَوَجُّعْ

وانْشِراح الصَّدْرِ يَسْري ::: في المآقي حتَّى تَدْمَعْ

صَوْتُه للنَّفْس يُشْجي ::: والفُؤادُ مِنْه يَسْمَعْ

خصَّه الخليلُ رُكْنًا ::: في الفؤاد حيْثُ يَرْتَعْ

والإلهُ يَأْبىَ شِرْكًا ::: في الفؤاد مَهْما وُضِّعْ

بادَرَ اللهُ◌ُ بِأَمْرٍ ::: للخليلِ هَيَّا فَاخْلَعْ

كلَّ غَيْرٍ في الفؤادِ ::: إنْزَعَنْ.. هَيَّا وَأَصْرِعْ

قلبُكَ يبْقَ◌َى سَليمًا ::: ليْس للمَوْلودِ مَرْتَعْ

سَلِّ◌ِ◌ِم القلبَ خَليلي ::: للْمَليكِ.. هَيَّا فاصْدَعْ

أمْرُهُ جاء صَريحًا ::: أَسْكِنِ الطِّفْلَ بِمَوْقِعْ

في فلاةٍ عِنْدَ بَيْتٍ ::: مُخْتَـفٍ في الأرْضِ يَـقْبَعْ

وَاتْرِكِ الأُمَّ رفيقـًا ::: كَيْ تُهَدْهِدْهُ وَتُرْضِعْ

حتَّى يَنْزَعْهُ الْخَليلُ ::: والفؤادُ يَبْقَ مُجْمَعْ

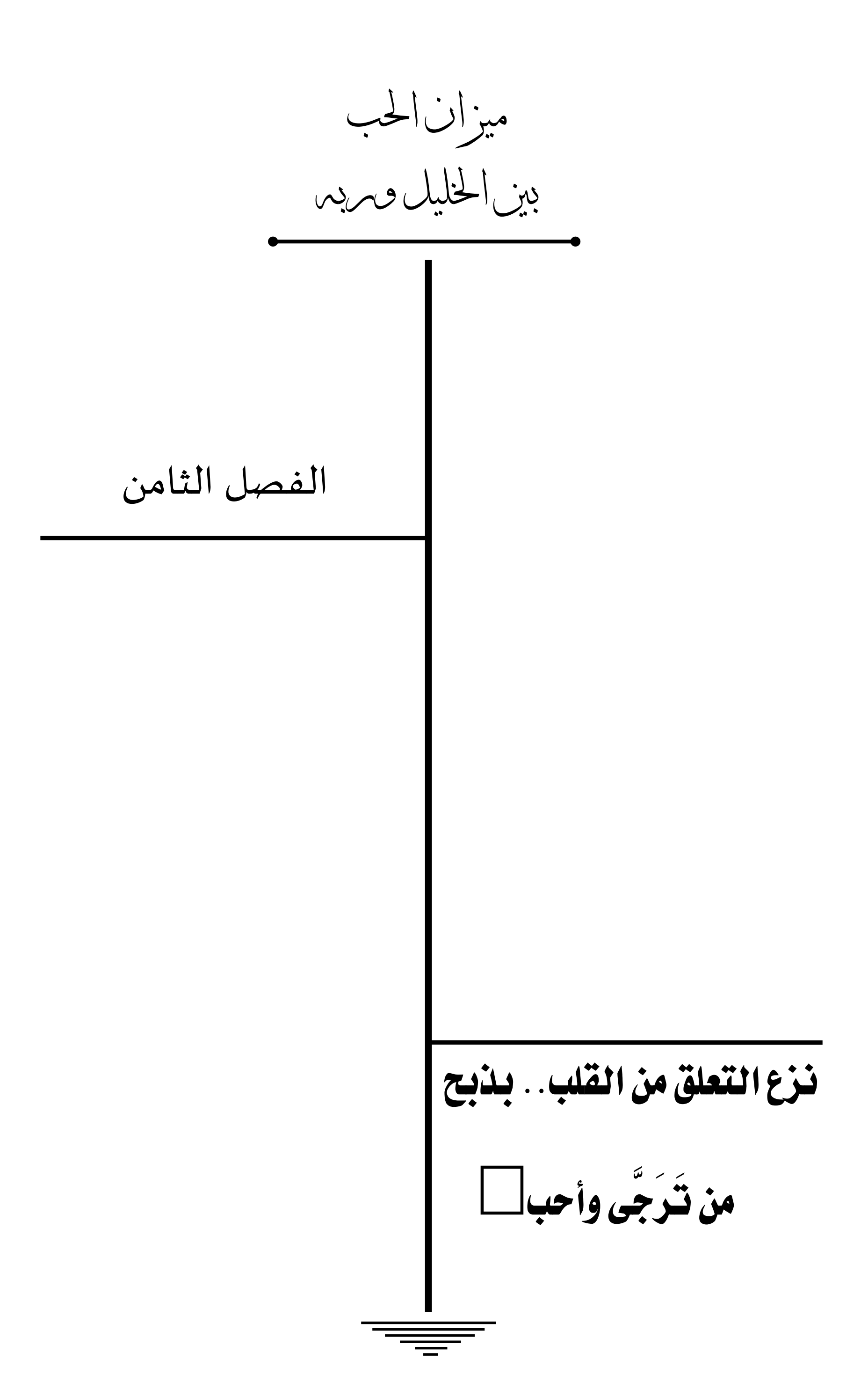
والإلهُ قدْ تَوَلىَّ ::: أمْرَ ذا الطِّفْل وَأَزْمَعْ

عالَهُ ماءَ وَطُعْمًا ::: بَلْ وَأَهْلاً في تَجَمُّعْ

ماءَ زَمْزَمْ.. ثُمَّ (جُرْهُمْ).. ::: ثُمَّ قَفْرُ الأَرْضِ تُزْرَعْ

أغْدَقَ اللهُ الْعَطايَا ::: لِلَوليدِ رِفْقَ مُرْضِعْ

ثُمَّ وَالاهُ بِحِفْظٍ ::: لِلْخَليل حيْثُ يَخْشَعْ


ميزان الحب
بين الخليل وربه
الفصل الثامن
نزع التعلق من القلب.. بذبح
من تَرَجَّى وأحب

نزع التعلق من القلب.. بذبح؟؟؟

من تَرَجَّى وأحب

مرَّ الزمان.. والمولى سبحانه يكلأ هاجر وولدها بطيب الطعام والشبع.. وخير الرِّيّ والسقاء.. والأُنس والإنسان.. والقِرِّ والقِرار.. والأمن والأمان.. وأصبحت الأرض القفار تعج بالأهل والإعمار.. والنبت من الزرع والأشجار.. وكل شيءٍ تمَّ إعجازاً في إعجاز!!..

يشبُّ إسماعيل سيداً في مجتمعه.. ويصبح أمهرالصائدين رمياً.. وأبو الفوارس إذا امتطى فرساً.. وأنشط العاملين إذا أُسْنِد إليه، أو أسند هو إلى نفسه عملاً.. وأفصح الناس لسانًا لُغَةً وأدَبًا.. وأشجع الشجعان جُرأةً وقلْبًا.. وأقوى الفتيان بِنْيَةً وجسمًا.. وأكمل الكُمَّلِ عقلاً وفكرًا.. وأنبل الناس كرَمًا وخُلُقًا!!.. وهنا يأت الأمر الإلهي وحياً لإبراهيم يدفعه إلى التوجه حيث ترك زوجه وولده ليطمئنه عليهما بالمعاينة عن قرب وليرى معجزة الرحمن فيهما!!.. فلبى إبراهيم الأمر الموحى إليه وارتحل راحلته إلى حيث ترك الوليد وأمه.. ودُهش لما عاين ورأى!!.. وعجب لقدرة الله الذي بيده الأمر كله!!.. فحمد الله كثيراً على مارأى من سابغ النعم التي أفاض الله بها على وديعته التي كان أسلمها لله طاعة وبِرًّا!!..

لمع الفَتَى الفَتِيُّ في عين أبيه حين رآه مُكَمَّلاً مُكْتَمَلاً.. ساعياً نشيطًا.. متفتق الذهن عن كل صائب رأى.. صابرًا على عمله مصابرًا لغيره.. صادق القول والحديث.. مستعبر الآيات بالفكر والنظر.. أمينًا مع نفسه، ومؤتمنًا من غيره وعلى غيره.. سديد النصح إذا نصح منتصَحًا.. قويَّ العزيمة.. لا يثنيه شيءٌ عمَّا عزم إذا عزم..

عاود إبراهيمَ الفكرُ والإنشغالُ بالفتى المقبل على الدنيا في ثقةٍ واعتزازٍ؛ مع صفاء سريرة، ونقاء طوية، وهدوء نفس وروِيَّة، واطمئنان قلبٍ تحوطه مع الإيمان التقوى والتقية.. ولا عجب أن يكون انشغاله هذه المرة أقوى وأضرى مما كان به والطفل وليدًا رضيعًا!!.. فشتان بين ما كان عليه الطفل الوليد فيما مضى وبين الفتى الذي يرى!!.. وهو الأب الذي بلغ في هذه السن ما قد بلغ!!..

والعمرالذي فيه طعن!!.. والشَّيْبُ الذي استباحه في لحيته فضلاًعن رأسه!!.. والعظم الذي منه وهن فأحاله إلى التفكير في مثواه وفي رَمْسِه!!.. وعلى قدر وقوة اندفاع انشغال القلب بغير الله؛ تكون قوة الإبتلاء لنزع ما في القلب من تعلق بغير الله!!..

* * *

إنه حوارٌ متكافيءٌبين كفَّتيّ ميزان الحب بين الخليل والرَّب

فعلى قدر ملء كفة الحب للرَّبّ في قلب الخليل.. يكون قدر الإبتلاء.. أوالرِّضَا والموالاة في كفة المولى الجليل.. ليعود إلى الكفتين الإتزان.. ويصحح المسار خليلُ الرَّحمن!!.. وفي كل موقف وحال.. يدور بالخليل وقلبه المدار!!.. (على قدر درجة انشغال القلب وتمسكه بالأغيار.. يكون قدر المآخذة وشدة وقعها!!.. لتتساوى معادلة الخلة بين الخليل (عليه السلام) وبين ربِّه (سبحانه وتعالى رب الوجود والأنام).. فعلى قدر الإيمان يكون الإبتلاء؛ كما ورد في معنى قول الحبيب (عليه الصلاة والسلام) " أشدُّ الناس بلاءً أقواهم إيمانا (أو قال أكثرهم أو أشدُّهم إيمانا).. ومقام الخلة يحقق ذروة الإيمان (وهذا مقام إبراهيم كما هو مقام الحبيب الخاتم " عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام وأنمى البركات.. اللهم آمين.. " إذ ورد عنه ◘ من حديث طويل في صحيح الحديث: ♂... ألا وإني خليل الله ولا فخر.. ألا وإني حبيب الله ولا فخر.. ألا وإني أول من يحرك حلق أبواب الجنة فأكون أنا أول من يدخلها ومعي فقراء المسلمين ولا فخر▬ أو كما قال ◘؛ ولقد صدق فيما قال...

* * *

البلاء العظيم

لمَّا زاد إعجاب إبراهيم بابنه الفتِيِّ الذي رآه على أتم وأكمل بناء خَلْقًا وخُلُقًا.. زاد به تعلقاً؛ وكان لا بد من جذبه من قلبه بأجدى جذبةٍ، وأرجاها لتُخْرِج ما عُلِقَ بقلبه منه حتى يعود القلب سليماً كاملاً تامًّا للرحمن (سبحانه وتعالى) لا يشاركه فيه شريك!!.. فتتحقق الآيتان الكريمتان التي جاءت في وصف إبراهيم في سورة الصافات (آية: 84) : { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) }.

ولمَّا كانت رؤيا الأنبياء حقٌّ، وأحلامهم صدقٌ.. إذ هىَ من الوحي والنُّبُوَّة.. لقول المصطفى (عليه الصلاة والسلام) : لم يبق من علامات النبوة بعدي سوى الرؤيا الصادقة.. يراها المؤمن الصالح فتتحقق كفلق الصبح " أو كما قال ◘ ".. فقد رأى إبراهيم في نومه أنه يؤمر بذبح ولده الفتى اللاَّمع الوحيد الذي رُزِقَهُ بالتَّمَنِّي على الله وعلى شوق منه.. وهو الطاعن في السِّنِّ.. الذي أخذ منه العمرُ مأْخذَه!!؟..

ما أشدها من محنة!!.. وما أعظمها من فتنه!!.. وما أصعبه من امتحان!!.. شيخٌ هرِم.. أحنت ظهره السنون بدوام عِراكِها.. تمنَّى على الله أن يرزقه الولد.. فرزقه إيَّاه.. ثمَّ أبعده عنه وأَنْآه.. في مكان لا يُرْجى فيه مأوىً يُؤويه.. ولا ماءٌ يرويه.. ولا طعامٌ يغنيه.. ولا أنيسٌ يُسَرِّي عنه ويُسَلِّيه.. فامتثل لأمر الله؛ وتركه وأمَّه في ذلك المكان القفر.. الخالي من الحسيس ومن الأنيس.. لا يَعْبُرُ عليهما عابرٌ في مرور.. ولا يأنسا بجليس يُسَرِّي عنهما جَلْبًا للسرور.. إن كان هناك ما يدعو في هذا الحال إلى انتظارٍ أو جلبٍ للسرور.. تركهما في هذا المكان القفر الموحش المخيف!!.. تركهما طاعةً لله، وامتثالاً لأمره، وثقةً به وإيمانًا بقدرته ومشيئته!!.. فبدَّل الله ضيقهما فرجاً!!.. وجعل لهما من شدتهما مخرجاً!!.. ورزقهما من حيث لم يتوقعا ومن حيث لم يحتسبا!!.. فأتم لهما الحفظ لِيُسَعِدَهُ بقدرته!!.. حتى أمل في الذرية التي كان تمناها!!.. وأصبح ونفسه بين جنبيه راضيةٌ مرضيَّة!!.. ببكره الوحيد!!.. الذي كان بشراه من ربه!!.. فعاش هذا الإحساس وعايشه!!.. وأحب من أجله الحياة واستمرأها!!.. وهو على هذه الحال!!!.. إذْ به يُـــؤْ مَـــــرُ بذبـــح هذا الولد الوحيد!!!؟؟.. الذي عاش بسببه على أملٍ - يخالجه - في امتداد ذريته!!.. وآملاً فيه أن يكون عونًا له في طاعن شيخوخته!!.. يا سبحان الله!!.. أيذبح وحيده بيده؟؟!!.. وبذبحه يضيع جميع أمله؟!!.. وهىَ رؤيا!!.. نعم!!.. هىَ رؤيا!!..

وإنْ كانت.. !!.. أيُصَدِّق ويذبح الفتى؟؟!!.. ويذبح معه الأمل؟!!.. أمْ ينسى.. أو حتى يتناسى؟!!.. إنه النوم.. وهىَ رؤيا نائم!!.. قد ينسبها إلى أضغاث الأحلام، وينتهي به الأمر إلى سلم وسلام!!.. ويبقى له الأمل في تحقيق المرام!!.. ذرية طيبة يدوم بها الوصل والدوام على مر الدهور والأيام!!.. إنها رؤيا نائم.. أو قل حلم من الأحلام.. وبالطبع هىَ ليست وَحْيًا أوحىَ إليه كما يوحى إليه دائمًا في يقظته.. وفي كامل وعيه وتمام إدراكه من الله العليِّ الكبير المتعال.. (هواجس وخاطرات وتبريرات ليس لها أولٌ ولا آخر يوردها الشيطان على تفكيره علَّه يستطيع أن يثنيه عن ذبح ولده).. وهنا تبرز المحبة الصادقة!!.. والخلَّة المتفردة!!.. إنها الْمَعِيَّةُ والتلقِّي من الذات العلية؛ نائمًا كان - إبراهيم - أو يقظانا.. فكلٌ كائنٌ وقائمٌ وجارٍ بالسويَّة!!.. وعلى قدر الخليل وعُلُوِّ منزلته، وكمال إيمانه وثبات يقينه؛ يكون ابتلاؤه، وشدة امتحانه، وعِظَمِ محنته.. فعظائم الأمور كُفْؤها العظماء.. وإن كانت محنته هذه لتنوء بها الجبال الراسيات!!..

ونجح إبراهيم!!.. عفواً!!.. أرجو المعذرة!!.. ونجح الخليل!!.. إنه الخليل للرب الجليل!!.. استجاب لأمر ربه.. وسارع إلى طاعته.. وارتحل إلى حيث ولده الفتيّ إسماعيل.. فقابله بما ينبغي أن يقابل به الوالد ولده، والولد والده بعد غياب طويل لازمه شوق عميق!!.. ثمَّ!!.. ثمَّ.. ما لبث أنْ أخبره بما رأى في نومه من تلك النبوءة التي تُدَكُّ بها الجبال!!.. وتُنْزَعُ بها القلوبُ من تجاويف الصدور!!... قال: يابُنىَّ.. إني أرى في المنام أني أذبحك.. فانظر ماذا ترى؟!!.. (وكأنه بالوحي يبادر إسماعيل.. يأمره بالطاعة!!.. إنه جدُّ النبيّ الأعظم، والرسول الخاتم " الذي قال عن نفسه: أنا ابن الذبيحين ".. الذبيح الأول المفتدى بالفدو السماوي؛ جده إسماعيل.. والذبيح الآخر المفتدى بمائة من الإبل؛ أبوه عبد الله بن عبد المطلب.. وكلٌّ كان فداءً للمصطفى، وحفظاً له.. منذ أصله الأوَّل.. وحتى فرعه الأخير " وهذا لم يكن لأيٍّ من الأنبياء أوالمرسلين!! ".. وكأنِّي بالفداء إرهاصٌ لعلو قدْر الحبيب محمد عند الله!!.. وتفَرَّدِ منزلته عند خالقه ومجتباه (سبحانه وتعالى) لكل من له أذُنٌ تسمع وتعي.. وعقلٌ يدرك.. وقلبٌ يبصر.. !! فهل من مستجيب من كل ذي بصرٍ وبصيرة؛ فاهمٍ لكل إشارةٍ واضحةٍ مُبينَه؟!؟!؟!..).

لم يتمهل إسماعيل الردّ.. وإنما بادر أباه بالطاعة!!.. مجيباً إياه قائلاً: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين!!.. لا تعليق عندي أجده يرقى إلى هذا السُّمُوِّ في البرّ!!.. فسبحان الله!!.. إنه لأعظم البر والتضحية والطاعة من ولدٍ لأبيه!!.. صادرٌ عن إيمان ثابت!!.. ويقينٍ أتمّ؛ نابعٍ من القلب..، إنه لرضاءٌ صادقٌ؛ صادرٌ عن نفسٍ راضيةٍ بقضاء الله وقدَره!!.. ولا عجب!!.. أليس هو الجدُّ المُعَدُّ، والفرعُ اليتيمُ - من شجرة إبراهيم الخليل - المُدَّخرُ لثمرةٍ عظيمةٍ؛ بلْ قُلْ لأعظم الثمار على طلاقتها متمثلةً في الرسول الأعظم، والنبي الأُمِّيِّ الأ كرمِ؛ خاتم شجرة النبوة للعالمين - محمد بن عبد الله ◘ !!.. بلى.. والحمد لله رب العالمين.

وراقب معي هذا المشهد العظيم بين الوالد الذي كان قلبه معلقا بوحيده، ومشغولاً به.. كيف انتزع الله من قلبه ما كان يشاركه فيه ولده من حُبٍّ، وانشغالِ عاطفةٍ لأُبُوَّةٍ جامحةٍ نحو ولده الوحيد.. وبين الإبن البار.. المقبل بفُتُوَّته (الغير مسبوقة لأقرانه) على الحياة!!..

الإبن المطلوب للذبح يرشد أباه إلى سبيل تخفيف لوعة الثُّكل عن أبيه فيقول: " يا أبت.. أشدد وثاقي حتى لا أضطرب عند ذبحي وأنا بين يديك تحت السكين فتأخذك بي الشفقة فتتهاون في تنفيذ أمر الله ".. (يا الله!!.. ويا لله!!.. ويا سبحان الله!!.. لن أسألك عن إحساسك يا أخي وأنت تشاهد بعين قلبك وبصيرتك هذا المشهد الراقي رقيِّ القرب من الله.. لعلك تشعر بما أشعر به.. ولعل الجسد منك قد سرت فيه قشعريرة كالتي سرت في جسدي.. ولعل العقل منك أصابه الذهول مثل الذي أصابني.. ليس لدي تعليق يكافيء هذا المشهد العالي المقام.. والذي تستبعد حدوثه عقول الأنام!!.. ولكني أتجرأ وأقول إنها شجرة النبوة.. المخاطب هو أصل الشجرة.. والمتكلم هو الفرع اليتيم منها!!.. (على نبينا وعليهما الصلاة والسلام)..

ويكمل الذبيح قائلاً لأبيه المتأهب لذبحه: "... واكشف عني ثيابي، حتى لا ينتضح عليها شيءٌ من دمي، فينتقص أجري.. (العاقل هو من يطلب الآخرة، ويضحي بالدنيا وما فيها طلباً لرضا الله جل وعلا).. ويستطرد قائلاً: وقد تراه أمي فيشتد حزنها، وتفيض عيناها بدموعها (يا للشفقة!!.. ويا للرحمة!!.. وما أعز أهلها في مثل أيامنا هذه عند الأصحاء.. العاقين لأمهاتهم!!.. ويا سبحان الله!!.. مقبلٌ على الموت ذبحاً.. وتفكيره مشغولٌ بحزن أمه وليس بذبحه!!..) ويسترسل قائلاً لأبيه: واشحذ شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون عليَّ؛ فإن الموت شديد، ووقعه أليم.. واقرأ على أمي السلام.. وإن أردت أن تَرُدَّ قميصي عليها فافعل؛ فإن ذلك فيه تسرية لهمِّها، وسلوة لها في مصابها، وهو ذكرى لوليدها، تشُمُّ منه عبيره.. وتتنسم فيه أريجه.. وتعود إليه حين تبحث حولها فلا تجدني.. وتفتش عني فلا تراني..

قال إبراهيم لولده: نِعْمَ العون أنت يابني على أمرالله.. ثُمَّ ضمَّه إلى صدره.. وأخذ يقبله.. وتباكيا وانتحبا للفراق!!.. (يا الله!!.. إنهما يعلمان يقينا أنهما في هذه الحياة الدنيا أضياف.. ثم يعودان إلى حيث كانا قبل المجيء.. وهناك يلتقيان بعد العودة والرجوع!!.. لَيْتَنَا نعمل لهذا عمل الموقنين.. فنستريح.. وغيرَنا نريح!!..).

صرع إبراهيمُ ولده على شِقِّه وأوثقه!!.. وأمسك الشَّفرة وهو ينظر إليها مرَّةً!!.. ويحدق في ابنه مرَّةً أخرى!!.. فتدفقت عبراته، وتتابعت زفراته رحمةً بولده وإشفاقاً.. (قلبي معك أبا الأنبياء.. قلبي معك خليل الله.. الله معك!!.. لن يضيرك!!.. وإنما هىَ نزعة لماتعلَّقَ بقلبك من الأغيار شابت سلا متة المعهودة عندك لله!!.. ويا سبحان الله!!..)

وضع الخليل السكين على عنق ابنه وأمَرَّها على حلقه.. ولكنها لم تقطع؟!!؛ لأن قدرة الله تدخلت فأثلمت حدَّها. قال إسماعيل: يا أبتي.. كُبَّني على وجهي حتى لا تأخذك بالنظر إلى وجهي رحمة بي تحول بينك وبين أمر الله.. ففعل، ثُمَّ وضع السكين على قفاه.. وأعاد المحاولة، ولكن الشفرة لم تمض ولم تقطع!!.. (تمامًا.. ومِثْلاً بِمِثْل.. كما أوقف الله عمل النار يوم أُلْقِىَ فيها الخليل.. ومكث فيها الليالي والأيام، ولم تأكل سوى القيد الحديد، ولم تمسه هوَ بسوء..

كذلك اليوم تتدخل عناية الله.. وتُؤَمَرُ السكينُ بعدم الذبح؛ فلا تذبح!!.).. سبحان من إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون!!.. سبحا ن الله!!..

أدركت إبراهيمَ الحيرة.. وشق ذلك على نفسه، فتوجه إلى الله سائلاً أن يجعل له مخرجًا!!.. فرحم الله ضعفه.. واستجاب لدعائه.. وكشف غمته بعد أن تم تصفية قلبه من التعلق بولده.. وعاد القلب سليماً تامًّا لمولاه.. لا يشاركه فيه شيءٌ من الأغيار.. فنودىَ:{ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) } [الصافات: ١٠٤ - ١٠٥].

استبشر الخليل وولده بالنجاة والفوز، وكشف الغمة، ودفع البلاء فأصبحا أصفى نفساً، وأثبت إيماناً، وأرسخ يقيناً. وفدى اللهُ إسماعيل بِذبْحٍ عظيم رآه بجواره؛ فأقبل عليه، وبتلك السكين نفسها التي كانت ثلمة لا تقطع ولا تجرح.. قام وأمَرَّها على حلق الكبش فَصُرِعَ من فوره.. وخضَّب الأرض بدمه.. (وسبحان من يقول للشيء كن فيكون) !!.. سبحان الله!!.. وكان هذا الكبش فداءً لولده إسماعيل (على نبينا وعليهما الصلاة والسلام).

* * *

من أين جاء كبش الفداء؟!!.. وما قصته؟!!..

وهل خُلِقَ لتوِّه؟!!.. أم كان مُدَّخَراً؟!!..

اجتمع جمهور العلماء على أن الفدو كان كبشًا أبيض.. أعين.. أقرن؛ رآه الخليل مربوطًا بِسَمُرَة (شجرة من أشجارالطَّلح) في ثَبير (ثغرة في الجبل) على مقربة منه.

وفي رواية عن الثوري نقلاً عن ابن عباس قال عن الكبش: أنه كبشٌ قد رعى في الجنة أربعين خريفًا (رواه الطبريُّ في كتابه التاريخ).

وقال سعيد بن جبير عن الكبش أيضًا أنه: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عن ثبير، وكان عليه عِهنٌ (صوف) أحمر.

وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبشٌ أعينُ أقرنُ له غثاء فذبحه.. (وأضاف) : وهو الكبش الذي قربه ابن آدم " هابيل " فتقبل منه (رواه الطبراني)... وهذا القول كما ترى مطابق لما أجمع عليه العلماء كما ذكر في أول الكلام عن الكبش.

ولقد خَلَّدَ اللهُ قصة الخليل وولده الذبيح وأمه (السيدة هاجر) على مَرِّ الزمان والدُّهور.. وصارت نُسُكًا في تحقيق الركن الخامس من أركان الإسلام؛ وهو حج بيت الله الحرام الذي أقام بناءه على قواعده كلا المبتليين (الخليل وولده إسماعيل) مع تخليد ذكرى السيدة الفاضلة هاجر ومعاناتها التي كانت.. فكان السعيُ بين جبلي الصفا والمروة (الذي أقره الله شعيرةً من شعائره سبحانه في الحج) تخليداً لذكرى هاجر التي كانت تبحث عن الماء بالسعي بين الجبلين صعوداً وهبوطاً إلى أن أسعفها الله هيَ وولدها بتفجيرعين زمزم المباركة.. وكان الطواف بالبيت الذي سكنت أرضه هيَ وولدها قبل الأمر ببنائه على القواعد.. وكذلك تخليداً لذكرى المبتليين (على نبينا وعليهما الصلاة والسلام) الذين قاما بأعمال بنائه.. وكان رميُ الجمار إظهاراً لانتصار الخليل وولده على وساوس إبليس اللعين لهما كَيْ يثنيهما عن تنفيذ أمرالله، فأبيا إلاَّ القيام بما أمرهما به الله؛ فأنجاهما الله، وأسبغ عليهما من فيوضات رضاه.. ثم كان ذبح الْهَدْيِ والضحايا إحياءً للذكرى الخالدة التي تحكي لنا على مَرِّ التاريخ حكاية البر العظيمة (بِرُّ الولد بوالده.. وبِرُّ الخليل بربِّه)... !!

وكان الجزاء على قَدْرِ المصاب (نارٌ - بكل النيران - لا تحرق ولا تلسع!!.. وسكين - حادة مشحذة لا تذبح ولا تقطع!!..)... (وكلٌّ بأمر الله صادع.. وكلٌّ لقدرة الله خاضع).. والحمد لله رب العالمين..

والنار ـ هيَ هيَ!! - أذابت القيود الحديد!!.. والسكين - هيَ هيَ - ذبحت الكبش السمين!!.. فسبحان الله!!.. إذ الأمر كله لله.. والفضل من الله رب العالمين.. وصدق الله العظيم.. البار الرحيم.. إذ ينقل لنا هذه المشاهد على عظمتها في آيات كريمة خالدة تتلى في كل مكان، وعلى مسامع أيِّ مَكين.. لعل الآذان تعي.. ولعل القلوب تلين.. في خضوعٍ وخشوعٍ لله رب العالمين!!

ولأن الحكاية موصولة بما كان قبلها من حكايات الجهاد التي خاض غمارها الخليل فقد وردت استكمالاً لما كان يوم ترك " حرَّان " هارباً بدينه إلى ربه ومولاه بعد أن يئس من هداية عُبَّاد النجوم.. فيقول عن إبراهيم:

{ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) } [الصافات: ٩٩ - ١١١].

* * *

بعد أن عاد الخليلُ ::: في ثياب الزهد يَضْرَعْ

راجيًا بالعوْد عفوًا ::: والعيونُ مِنه تَدْمَعْ

عاد بالقلب سليمًا ::: ذاكرًا.. لله يخشعْ

أفرغ القلبَ هواهُ ::: والكيانَ منه أجْمَعْ

و الفؤادُ قدْ تناءى ::: بالتعالي والتَّرَفُّعْ

عن سِوىَ ربِّ الوُجودِ ::: مهما كان فيه يَطْمَعْ

لم يعد يَشْغَلُهُ شيءٌ ::: حوْل مولودٍ وَمُرضِعْ

و الزمانُ مَرَّ يجْري ::: ما رِقًا كالسَّهْمِ.. يُسْرِعْ

و الوليدُ قدْ تنامى ::: بالشباب قد تَلَفَّعْ

أكمل اللهُ بناءَهْ ::: و الكمال فيه يَسْطَعْ

كلُّ حُسْنٍ قد علاه ::: مِنْ خَلاق أو تطبُّعْ

قد تَحلَّى بالحسان ::: بالتسامي قد تشبَّعْ

ما هرًا ليس يُجارَى ::: فارسًا في كلِّ مَوْقعْ

و الوُحوشَ مِن خيول ::: روَّضَنْ إيَّاها.. طَوَّعْ

و امتطاها باقتدار ::: تؤمَرُ منه.. فتَخْضَعْ

إنْ بِطاحَ الأرض يرجو ::: أوْ جِبالاً حيث يطلعْ

لا يُطاوِلُهُ مَثيلٌ ::: إنْ علاها.. ثُمَّ أقلعْ

في الصِّراع ليس يُصْرع ::: مَنْ يصارعه.. يُفَزَّعْ

إن رمى.. فاق الرُّماة ::: في اصْطِيــادٍ أوْ تتبَّعْ

رأيُه رأيٌ سديدٌ ::: قَوْلُه في القَوْم يُسمعْ

بعد أن مرَّ الزمانُ ::: بالخليل حيث يقبعْ

فجأة بالوحي يُؤْمَرْ ::: وهْوَ إذْ يُنصِتْ ويَسمعْ

يا خليلي.. زُرْ وليدَك ::: كَيْ تُعاينْه.. وتسمعْ

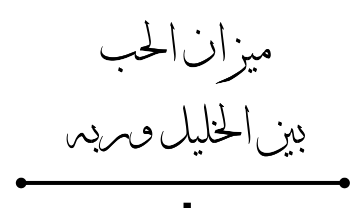
فامتطى الرَّحلَ وسارَ ::: حيث أمْرُالـوَحْيِ.. أزْمَعْ

إذْ به يلقَ الوليدَ ::: نَجْمُهُ في القوم يلمعْ

ليس في الفتيان مِثْـلٌ ::: يَدْنُ منه أيَّ مَطْلَعْ

عند ئِذ صار ٱلْفتِىُّ	:::	شاغلاً في القلب مَوْقِعْ
أشْغلَ في القلب رُكْنًا	:::	خَصَّه سُكْنَى وَمَرْتَعْ
حُبُّه في القلب زادَ	:::	بانشغال باتَ أوْقَعْ
قلبُهُ صار مَشَاعًا	:::	بين ربٍّ لم يُوَدِّعْ
وَ الفَـتى حيْثُ تـنامَى	:::	حُبُّه في القلب يسطعْ
صار في القلب مكينًا	:::	مستقِرًا.. قد تربَّعْ
أيقظَ الشَّوْقَ القديمَ	:::	منذ عهدٍ.. عاد يلمعْ
و الإلهُ ليس يرْضَى	:::	نازعًا في القلب ينزعْ
قال وحيًا للخليلِ	:::	لِلـْفَـتَـى هيّا.. فأنْزِعْ
إخلعَنْ هذا الصَّبِيَّ	:::	نفِّذ الأمر وأسرِعْ
اذبحَن إيَّاه ذبحًا	:::	من شغاف القلب يُخْلَعْ
واستجاب الإبْنُ تَوًّا	:::	إنَّه للأمر أطْوَعْ
بَرَّ بالصدق أباه	:::	فافتداه الموْلى أسرعْ
فهْوَ جَدٌّ للنبيِّ	:::	صُلبِه إذْ فيه أُوْدَعْ
والإله قد فداهُ	:::	رحمةً للناس أجمعْ
نَجْمُهُ للكوْن آتٍ	:::	آخِرَ الأزْمان.. يسطعْ
ثُمَّ صار البِرُّ نُسكـا	:::	بَصَّرَ الكوْن وأسْمعْ
بِرَّ إبراهيمَ ربَّه	:::	ثُمَّ بِرَّ الإبْن يَـتـْبَـعْ
فيه إحياءُ الفداءِ	:::	إذْ كِلا.. بالأمر يَـصدعْ
شُرِّع في الحَجِّ هدْيًا	:::	أضْحِياتٌ.. فيه تُـضْجَعْ

* * *



الفصل التاسع

تخليدُ حُبِّ الرَّحمن.. للخليلِ علَى مَرِّ الزَّمان□

تخليدُ حُبِّ الرَّحمن.. للخليلِ

علَى مَرِّ الزَّمان

مَرَّ الخليل في رحلة امتحان صعبة وعصيبة؛ جهادًا وتضحية وإيثارًا لله (سبحانه وتعالى) عمَّا سواه.. مهما كان لهذا الغير عنده من مكانة قرابة أصلٍ، أو امتداد فرع.. بل آثره (سبحانه وتعالى) على نفسه وعلى هواه وإن كان فيه تَمَنِّيه ومشتهاه..

1 - آثر الله، وحُبَّه على أهله وقرابته عندما واجه (آزر)، وقومه.. بدءًا بقرابته القريبة، وانتهاءً بقومه وعشيرته كليهما أجمع.. فنبذوه، وهاجروه، وبالرجم والقتل هدَّدوه.. وأفحشوا له القول.. وأغلظوا له القلوب.. وأنفروا منه النفوس.. وأساءوا إليه أسوأ الإساءة.. فلم يأبه بما لاقاه أو قد يُلاقيه، وواصل الجهاد غيرةً لله، وإعلاءً لدعوة التَّوْحيد.. وقد تقدم ذكر هذا في بيان الآيات الخالدة التي خلد الله بها هذا الجهاد، وما قوبل به منهم:

*{ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) } [مريم: ٤١ - ٤٨].

(خاصة بمن بدأ به وهو " آزر).

* آيات سورة العنكبوت:{ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (25) ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)} [العنكبوت: ١٦ - ٢٧].

(خاصة بقومه وعشيرته).

* آيات سورة الشعراء:{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) } [الشعراء: ٦٩ - ٨٣]

جامعة لبعض ما دار بينه من جهــة وبيــن " آزر ".وســائر قومه من جهة أخرى).

2 - آثر الله، وحُبَّه على نفسه - تضحية منه وفداءً لكلمة التوحيد - عندما أوقدوا له النيران التي تكفي لحرق دولتهم أجمع، وألقوه فيها قذفًا بالـ " مانجانيق " من سحيق بُعْدٍ.. من شدَّة لفحها:

* آيات سورة الصافات:{ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) } [الصافات: ٨٣ - ٩٣].

* آيات سورة الأنبيــــاء:{ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66)

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) } [الأنبياء: ٥١ - ٧٠].

* آية سورة فصـــــلت:{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) } [فصلت: ٣٧].

3 - آثر الله، وحُبَّه على نفسه عندما تعرض لخطر التنكيل والموت وربما التمثيل بجثته من بعد قتلٍ.. حينما ذهب بمفرده (وحيداً)، ودخل مساقًا إلى قصر النمرود.. ومثل أمامه في عزلةٍ رهيبةٍ مخيفة.. والنمرود يعتلي كرسيٍّ عرشه، ومِنْ حوله الملأ والحاشية يحيطون به من كل ناحية وجانب.. وكانت تكفي منه إشارةٌ ليُصْنَع به ما يُصْنَع، وينتهي كلُّ شيء.. وهو الذي لا صاحب معه ولا قريب ولا شفيع:

* آية سورة البـقـرة:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) } [البقرة: ٢٥٨].

4 - آثر الله، وحُبَّه على نفسه بعزمةٍ منه قويَّة، ودفعةٍ من داخله متفجرة في مواجهة عبدة النجوم والكواكب في " حرَّان " لا يخشى تجمعهم أو كثرتهم، وهو وحده في مواجهتهم.. يجادلهم، ويسفه معتقداتهم:

* آيات سورة الأنعام:{ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80)

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) } [الأنعام: ٧٥ - ٨٣].

5 - ما تعرض له في مصر من أذىً في امرأته، وتهديدٍ لعرضه.. ثُمَّ ما تعرض له من اضطهادٍ على يد تجارها حتى غادرها إلى أرض فلسطين " حرَّان " للتمركز فيها لنشر دعوة التوحيد:

* (وقد أوردنا هذه الوقائع من صحيح الحديث الوارد عن الحبيب خاتم النبيين والمرسلين.. إن شئت فارجع إليه للتذكير).

6 - آثر الله، وحُبَّه على نفسه وعلى هواه عندما أجاب ولبىَّ ما أُمر به؛ فأودع وليده الرضيع والوحيد الذي رُزِقه على كبر، وفي سنٍّ طاعن، وقد وهنت منه العظام.. ولقد أوتِيَ إياه على شوقٍ منه وتلَهُّفٍ ورجاء.. أودعه هو وأمَّه في أرضٍ صحراءٍ قاحلةٍ جرداء؛ لا زرع فيها ولا ماء، ولا إنسانٍ ولا حيوان، ولا مأوىً ولا دار، ولكن في خلاءٍ وعراء.. يلتحفان تحت السماء الهواء.. ويظلهما لهيب الشمس الحارق في وقت الهجير.. ويفترشان الرمال الرمضاء!!.. ويتلفعهم البرد اللاذع والصقيع، ويلفهم الخوف.. ويحتضنهم الفزع إذا جنَّ الليلُ وأُذِن للوحوش بالانتشار والمسير، وإرسال العواء والعويل!!.. :

*{ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) } [إبراهيم: ٣٧].

7 - آثر الله، وحُبَّه على نفسه وهواها، وعلى ولده ووحيده حينما استجا ب للرؤيا.. وعزم على ذبح ابنه الوحيد!!.. وقام فعلاً بالتنفيذ!!..

* سورة الصافات:{ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103)

وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) } [الصافات: ٩٩ - ١١١].

سبعة ابتلاءات تعرض لها الخليل!!.. وأيٌّ منها كانت كافية لهدم بِنْية بطل الأبطال!!.. وينوءُ بها كاهلاه!!.. في عالم البشر والإنسان!!.. وتجزع من خاطرات خوضها وإتمامها!!.. وتُرَوَّع أيّما ترويعٍ!!.. نفس أيِّ إنسان!!.. ويكون لهذه النفس حينئذٍ كُلَّ معقولٍ من التبرير!!.. ولكنه.. هُوَ هُوَ!!.. كما أراد وقدَّر له الله!!.. هُوَ هُوَ!!.. خليل الرحمن.. ولا بد - كما وضح لنا وظهر - أن يكافِيء هذا العملَ وهذه التضحيةَ قدْرُ ونوعيَّةُ الجزاء.. فالإثابةُ على قدْر التضحيةِ تكون..

ولا يُستحق التخليد إلاَّ لأصحاب الخروقات.. التي تجري على أياديهم وبسواعدهم وطموحات نفوسهم المعجزات!!.. ما دامت الأرض والسماوات!!..

البيت المعمور.. بيتٌ فوق السماء السابعة، وسقفه عرش الرحمن.. يدخله كل يوم سبعون ألف ملك.. ثم يذهبون.. وفي اليوم التالي يطوف حوله سبعون ألف ملك آخرون.. ثم يذهبون.. ويأتي غيرهم.. فمن طاف به مرة لا يعود إليه إلى يوم الدين!!.. هكذا!!.. فتأمل معي واعتبر.. واسجد معي لقدرة الله في خلقه!!.. فسبحان الله!!.. ويا سبحان الله!!..

وفي كل سماء بيت يدخله عمَّارها من الملائكة الكرام!!.. كما يدخل الملائكة المقربون تحت العرش البيت المعمور.. ويقع كل بيت في كل سماءٍ تحت البيت المعمور الذي هو تحت عرش الرحمن، وفي موازاته ومحازاته.. بالدقة والكمال والتمام المتناهي.. حزْواً بحزوٍ.. وموازاةً بموازاة..

أى أنَّ السبع سماوات تتمتع كلٌّ منها ببيت لله يدخله الملائكة متعبدون لله سبحانه وتعالى، وجلَّ شأنُه في عُلاه!!..

انظر.. وتبصَّر معي.. ما ادخره المولى عز وجل من جائزة قيمة غالية لخليله (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) في الأرض!!.. وما ساقه من رموزٍ وإشارات لخليله حينما أمره بإسكان وليده الرضيع وأمِّه الضعيفة بذات البقعة المباركة الطاهرة المدَّخرة لتخليده وتخليد ابنه الوليد " إسماعيل " وتخليد زوجه " هاجر ". (عليهم جميعا وعلى نبينا حفيدهم أفضل الصلوات وأزكى السلامات ونوامىَ البركات) !!.. إذ كان إسكانهما في هذه البقعة من الأرض تمهيداً، وإرهاصاً ببناء بيتٍ له (سبحانه وتعالى) عليها!!.. إذْ هىَ أطهر بقعة في الأرض، وهىَ البقعة التي تقع على امتدادٍ عاموديٍّ تحت البيت المعمور تحت العرش!!.. ليبنى عليها بيتٌ لله يحج إليه أهل الأرض كما يحج إلى البيت المعمور الملائكة المقربون تحت العرش!!.. وكما يحج بيت كل سماءٍ تحته عمَّارها من الملائكة الكرام!!.

* * *

تأملات في عظم الجزاء مع عظم البلاء

*** * انظر معي بعين عقلك.. وتأمل بعين بصيرتك * ***

(سبعة ابتلاءات عظام).. أشدها وقعا؛ يقع في أرض البناء.. يؤمر بإيداع ولده وأمه فيها.. ثم يؤمر بذبحه فيها.. ثم يؤمر ببناء بيت الله فيها.. ويعاونه في البناءابنه الذبيح المفتدى بذبحٍ عظيم قدَّمه أطهر ولَدَىّ آدم قرباناً منذ بدء النسل فتُقُبِّلَ منه، ورُبِّيَ في الجنة انتظاراً لوقتٍ معلومٍ حيث يأمر الله بذبحه فداءً لإسماعيل!!

وانظر إلى ترويع هاجر، وهرولتها سعياً (سبعة أشواط) بين قمتَيّ جبلَيّ الصفا والمروة بحثاً عن الماء لتروي ظمأها، وتُرضِع طفلها..

وانظر إلى تفجير ما ء زمزم الطاهر المبارك بضربة جناحٍ من ملَك مأمور ليرتوي به الطفل الرضيع وأمه.. ومن كثرة الماء وجريانه تضمه هاجر براحتيها (سبعة مرات) قائلةً " زِمْ زِمْ ".. أىْ أنها تأمر الماء المتدفق بلا حساب بأن ينضم ولا يجرى في الصحراء!!.. فيستجيب الماء لها!!.. ويقول رسولنا الكريم في هذا المقام: " رحم الله أم إسماعيل.. لو لم تضم الماء (زمزم) لكانت أرض العرب مروجاً خضراء ".. أو كما قال ■.

وانظر معي حيث يبنى بيت الله الحرام في بقعة هىَ مركز الكون على الأرض تحت بيوت الله السبع في السماوات السبع.. أعلاها البيت المعمور؛ تحت عرش الرحمن!!.. ثم يُخَلَّدُ كُلُّ هذا في ركن مهم من أركان الإسلام بأمر الله سبحانه وتعالى!!.. ألا وهوَ ركن الحجّ!!.. يا سبحان الله!!.. إنها إرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى!!..

وإليك هذه النسك:

1 - الطواف حول بيت الله الحرام (الذي بناه إبراهيم الخليل وإسماعيل الذبيح) سبعة أشواط.

2 - الصلاة خلف مقام إبراهيم (وهو الحجر القائم الذي كان يقوم عليه الخليل ليكمل بناء البيت ارتفاعًا بعد أن شق عليه أن يطاوله من فوق الأرض).

3 - حِجْر إسماعيل.. ومن صلى فيه فقد صلى داخل الكعبة لأنه جزءٌ من أصل البناء.. وقد دفن فيه إسماعيل الذبيح هو وأمه هاجر التي سبقته إليه بالمَنِيَّة.

4 - الشرب من ماء زمزم الطاهر المبارك الذي قال فيه الرسول الأعظم: " ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم ".. وقال عنه أيضاً: " ماء زمزم لما شُرِب له ".. فشرب ماء زمزم الطاهر المبارك يُذهب المرض.. ويزيد العلم.. ويقوِّي البدن.. ويقوِّي الإيمان.. ويغسل الذنوب... الخ. (وكلٌّ حسب عقد النية عند شربه).

5 - السعىُ بين جَبَلَيِ الصفا والمروة (سبعة أشواط) تخليداً لذكرى ما قامت به السيدة الفضلى هاجر من السعي بحثاً عن الماء قبل أن تتفجر زمزم تحت قدميّ وليدها إسماعيل.

6 - رمىُ الجمرات (سبعاً سبعًا) في أماكن كان الشيطان اللعين يوسوس فيها للخليل.. رجاء أن يثنيه عن ذبح ابنه الوحيد، ويعصي الله فيما أوحى إليه به في نومه.. ولكن إيمان الخليل ويقينه غلبه.. وتَجَاوَبَ ولده معه في هذا الأمر الجلل.. فأحبطاه وأخنساه..

7 - ذبح الهدايا (إحياءً لذكرى الفداء لإسماعيل الذبيح عليه السلام؛ الذي فداه الله سبحانه وتعالى بكبش سمين)..

* وكان الجزاء للخليل وابنه وزوجه.. تخليدٌ ما بعده تخليد

* * *

تخليد القرآن العظيم لملحمة الحب العظيم

لقد خلد الله سبحانه وتعالى ذكرى الخليل إبراهيم، وزوجه هاجر، وابنه الذبيح إسماعيل في آيات تتلى إلى يوم الدين.. كما خلدها نسكاً للمؤمنين على مر الأزمان إلى يوم الدين.. وإليك أخي القارئ قصة بناء الكعبة من أولها حتى تمامها من آيات كتاب رب العالمين..

أولاً: تحديد مكان بناء البيت وتعيينه للخليل، وبيان الهدف من بنائه:

{ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) } [الحج: ٢٦ - ٢٧].

ثانياً: تلقِّي الأمر من الله والقيام بأعمال البناء بمساعدة إسماعيل:

{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) } [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

ثالثاً: بيان فضل البيت، وبيان فضل مقام إبراهيم (الذي كان يقف عليه إبتغاء تعلية البناء والإرتفاع به) :

{ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) } [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

رابعاً: الأمر الصادر من الله إلى المسلمين باتخاذ مقام إبراهيم مصلًى:

{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) } [البقرة: ١٢٥].

فهل بعد هذا التخليد من تخليد؟؟!!

الله!!... الله!!... على فضل الله!!

* * *

الخليل من البيت الحرام إلى البيت المعمور

الخليل من بيت الله الحرام في الأرض.. إلى بيت الله المعمور تحت العرش.. من أطْهَر بناءٍ بناه على أطهر مكان في الأرض.. إلى أعلى مكان في الكون تحت العرش.. حيث مأواه بعد الموت، وإلى قيام الساعة. !!.. أليس من حق الخليل أن يكون قريباً من خليله.. من بعد طول جهادٍ في سبيله؟!!.. فلا تعجب.. إنه الخليل..

يُخْبِرُنا الحبيب محمد ◘ أنه لما عُرِجَ به إلى السماوات (حتى كان قاب قوسين أو أدنى) أنه مرَّ بكل سماءٍ فقابل فيها من سكانها من الأنبياء؛ كلاً بحسب منزلته؛ وأنه رأى إبراهيم في السماء السابعة تحت العرش مسندًا ظهره إلى البيت المعمور تحت عرش الرحمن (الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. لا يعودون إليه إلى يوم الدين).. !!

تمَّ بحمد الله وتوفيقه

حسن عابــد

* * *

أما بعــد

أخي القاريْ:

لقد أتم الله (سبحانه وتعالى) لي تجوالي مع الخليل (على نبينا وعليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات وأنمى البركات).. ولقد وجدتُني - كما رأيتَ معي - متتبعا - بتوفيق الله (سبحانه وتعالى) - خُطوات ومواقف الخليل منذ ولادته وحتى وفاته؛ مبرزاً لزاويةٍ هامة غاية الأهمية في علاقته مع الله.. ألا وهِيَ.. زاوية الحُبّ..

فالحب يستلزم الطاعة، والطاعة تستلزم إيثار المحب لمن أحب على سائر الأغيار؛ حتى لو كان الغير هذا هو نفس المحب وذاته:{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) } [البقرة: ١٦٥]..

ولكيْ يفوز المحبُّ بحب الله إيَّاه؛ فلا بد له من أن يكون على إرادة الله " المحبوب " وهواه:{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (31) } [آل عمران: ٣١] -

والإتباع هنا هُوَ اتباعٌ لوحي الله، وليس لما في النفوس من أهواء دون ضبطٍ أو استواء.. فالعلاقة بين الخليل وربه تحكمها رمَّانةُ ميزان الحب.. وللميزان كما تعلم كفَّتان: إحداهما جهة المُحِبِّ، والأخرى جهة المحبوب.. ومن كيفية ونوعية ووزن ما يكون في كفة المُحبّ.. يكون في المقابل من نفس الكيفية والنوعية والوزن (أو أزيد من ذلك) في كفة المحبوب (سبحانه وتعالى):

♂من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً▬ (من حديث قدسيٍّ شريف).. وشدة البلاء مع الصبر عليه والمصابرة من المحب الطائع المجاهد؛ يقابله عونٌ وتوفيقٌ يترجمه إعجازٌ وخوارقُ من الله رب العالمين " المحبوب " - سبحانه وتعالى ـ يجريها لمن أخلص له الحبَّ..

وهكذا.. تؤثرُ اللهَ على سائر المخلوقات؛ مهما كان لها من صفة أو مكانة أو اعتبارٍ عندك (نفسك، والدك، ولدك، أهلك، مالك، وطنك... إلخ.)... يُؤْثِرْك اللهُ على سائر مخلوقاته.. ويقربك إليه.. ويُجري معجزاته، وخوارق آياته، وكراماته لك وعلى يديك!!. فتصير عبداً ربَّانيًّا محفوظا بحفظ الله!!.. مُهابًا بِهَيْبَة الله!!.. قويًّا بقُوَّة الله!!.. يَحُوطك الله بجندٍ من ملائكته الأطهار!! ويجعل لك الكلمة العليا.. واليد العليا.. حفظاً ونصرًا وانتصارًا؛ حتى ولو كنت أنت المؤمن الوحيد في هذه الدنيا، وكان جميع أهلها كافرين (كما كان حال الخليل) " عليه السلام "..

وإن كنت على خلاف ما سبق ذكره.. أيْ إن كنت تُؤثر غير الله على الله، أو تشرك مع الله غير الله في قلبك " الذي هُوَ وعاء الحبِّ للمحبين ".. والعياذ بالله من ذلك ".. فإنما المردود في المقابل يكون مِثْلاً بِمِثْل.. إن أشركت معه غيره في قلبك أو فكرك بما يشغلك عنه بعض الحال، أو بعض الوقت؛ انتزعه منك نزعًا ماديًّا والعياذ بالله من ذلك.. ومعنويًّا يخرجه من قلبك، ومن عقلك، ومن لبابة فكرك.. فتخلص لله وحده حالاً وفعلاً وقولاً؛ إن كان يريد الإبقاء عليك له سبحانه محبةً منه واجتباءً!!.. أو يسلمك لما أشركت به.. فيتركك لهوى نفسك اللَّقِسَة!!.. فتكون الهاوية!!.. ويكون الخسران المبين!!..

فإن كان حُبُّ الله هُوَ همُّك، وشغلُك؛ يأمر النار المعدة لحرقك؛ فتكون برداً وسلاماً عليك؛ فلا تمسك بسوءٍ.. وفي الوقت ذاته تذيب عنك القيد الحديد!!.. (كما حدث مع الخليل!!).

وإن كان قلبك، ولسانك يترجم حبك لله غيرةً عليه، وله سبحانه، وأنت المؤمن الوحيد في مواجهة طواغيت، وجبابرة الدنيا كلها!!.. لا يجرؤ أيٌّ منهم على أن يمسَّك بسوءٍ ولو بكلمة.. مهما كان عددهم وعدَّتهم!!.. (كما حدث عند مواجهة الخليل للنمرود ومَلإِهِ وحاشيته في داخل قصره!!.. وهُو الوحيد يواجههم.. ويُسَفِّه عقائدهم وعقولهم!!.. ولا يستطيع أيُّهم أن يوجّه إليه بذيء كلمة.. أو إيقاع تعذيب، أو تنكيلٍ به!!.. ويخرج من بينهم وحيدًا.. عزيزًا.. مزْهُوًّا بالنصر!!.. تاركهم جميعًا في حسرةٍ؛ لا يستطيع على وصفها سواهم) !!..

وإ ن كان قلبك مفعمًا بحب الله.. فتؤمر بأن تلقي بزوجك وولدك الرضيع في مهب رياح الصحراء وفيحها (دون ماءٍ ولا زرعٍ ولا طعامٍ ولا بيت يأويهما).. فتفعل ذلك طاعةً للأمر وتسليمًا!!.. يبدل الله حالهما إلى أحسن حال؛ على غير عينٍ منك!!.. فيُجْري لهما أطيب الماء رِيًّا!!.. ويأتيهما بأطيب الناس قلوبًا ليكونوا لهما أهلاً!!.. ولأرضهما زُرَّاعًا!!.. وتُقامُ الدِّيارُ!!.. فيكون لهما من المأوى آمَنَه!!.. ومن الرزق أغدقه وأطيبه!!.. ومن العيش أهنأه!!.. ومن العشيرة والسكن آنسه!!.. (مثل ما كان من حال الخليل، وزوجه " هاجر "، وولده الرضيع (إسماعيل) !!.. (عليهم السلام).

وإن كانت طاعة الله دَيْدَنَك؛ فيأمر السكين المعدَّة للقطع والذَّبْح بأن تَثْلُم؛ فلا تقطع ولا تذبح!!.. (كما كان الحال مع الخليل وولده الذبيح إسماعيل) !!. وفي ذات الوقت والحال تذبح الكبش السمين.. غليظ الجلد والوتين.. بتمريرة واحدة على نحره!!.. سبحان الله!!.. إنه الله!!.. الذي إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن.. فيكون!!..

وإن كنت تحب الله وتخلص له، وتهاجر إليه هربًا بدينك من ديار أهل الكفر والأوثان.. فيحفظك الله، ويحفظ عِرْضَك؛ حتى ولو كان خصمك ملك البلاد التي أنت إليها مغترب!!.. وتعود وزوجك العاقر بهدية ثمينة يرزقك الله منها الولد الطيب الصالح الذي طالما تمنيته على الله!!.. (مثل ما حدث للخليل مع ملك مصر وعودته بـ " هاجر " أم إسماعيل) !!..

كلُّ هذا أخي القاريء.. لا بد أن نستخلص منه القدوة في إخلاص الحبِّ لله.. وتنقية القلب مما سواه.. (مَنْ شَغَلَهُ ذكري عن مسألتي أعطيته أحسن ما أعطي السائلين) " من حديث قدسيٍّ شريف ".. فالأفضل لنا أن نشغل القلبَ بحُبِّ الله.. واللِّسانَ بذكر الله.. ولا نُجري على حواسِّنا من العمل إلاَّ ما يُرضي الله!!.. لنفوز بحبِّ الله.. والقرب من الله!!.. وهذا هو الميزان ذو الكفتين!!.. تملأ كفتك إخلاصًا وطاعةً حبًّا في الله.. يملأ (سبحانه وتعالى) الكفة المقابلة ولا ية وحفظًا وكفايةً لك عن كل ما سواه.. وإن خالفت أو شُغِلت معه بغيره... تخلىَّ عنك وتركك لما أشركت به.. أو يبتليك لتعود إليه إن كان سبق لك منه الحسنى.. وما تشاءون إلاَّ أن يشاء الله رب العالمين..

* * *

أحوالك مع الله توزَن.. إمَّا لك وإمَّا عليْك

إذا القلبُ بذات اللهِ يَـنْـشَغِلُ ::: بإخلاصٍ .. تُنالُ رُتْبَة الـْخُـلـَّة

إنْ قـدْ شاغـَلَ القلبَ أو العقلَ ::: مِنَ الـذ كْرِ سوى الله.. بدَتْ عِلَّة

فقلبُ المرء إن يُـسْـلـَمَ إلى اللهِ ::: صَحِيحًا.. يَصْفُ في التِّرْحال والحِلة

وغيرُ الله إن يُشغلُ به القلبُ ::: ينازعه.. فتعتل به الخُلـَّة

ويأبى الله أن يُشْرَكَ به شيءٌ ::: فينـزعه بأمرٍ يُذْهِبُ العِلـَّة

و بَيْن النقص والإتمام إيقاعُ الـْ ::: ـبلاءِ يأت كَيْ تُصْقَلُ به المِلـَّة

وفي التشديد تمحيصٌ لذي لُبٍّ ::: و تنـزيهٌ من الغيْر ولوْ قِلـَّة

و بين الخِفِّ والتَّرْجيح ترديدٌ ::: يُراوحُ كفـَّتـَيّ ميزان ذي الخُلَّة

* * *

دعوة لمجاهدة النفس

أخي القاريء..

هيًّا معي.. نجاهد أنفسنا.. لنتَّبِع طريق الحق.. ونتمسك بمحبة خالق الخلق.. نتقرب منه.. ونتملقه.. (علَّه عنَّا يرضى.. ويعيننا على اتباع هَدْيِ نبيِّه، وإحياء سنَّته على طريق الله السويِّ).. عبادةً له، وتعاملاً مع خلقه، وحالاً لا يتحوَّل عنه!!.. ففي صلاح الحال، مع القيام بصالح الأعمال، وتعلق القلب والفكر بالله المتعال؛ يبدل الله أحوالنا إلى أحسن حال..

ولك.. أستحضر ما يؤيد ما ورد في هذا الكتاب من آيات الله المعجزات.. توثيقًا لما هدانا الله إليه من الوقوف على عظيم قدرته في الخلق والإبداع.. وخرق نواميس الكون من إيقاف المألوف وتغيير المعروف!!.. فتأمل معي التحذير.. والإنذار.. وتغيير وتبديل كل ما تدور به الأفلاك، ويدور عليه المدار.. ويتتابع عليه الليل والنهار!!..

تأمل معي في سورة التوبة (23، 24) :{ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24) }...

وهذا ما حدث لمملكة النمرود ومليكها المتجبر والمتغطرس!!.. حيث كان موته وهلاكه بحشرة ضعيفة دخلت من أنفه واستقرت بداخل رأسه تأكل فيه حتى أذهبت نومه وعقله، وأصابته بالهوس والعَتَهِ حتَّى مات، وذهب مُلْكُه، وتشتَّـتَـتْ مملكته، وتَشَرْذَمَتْ رعِيَّتُه!!..

وتأمل معي حال قوم سبأ الذين بدَّلوا مع الله؛ فبدَّل الله معيشتهم وأمنهم إلى أسوء ما كانوا لا يحتسبون، ولا يتوقعون!!..{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) } [سبأ: ١٥ - ١٧]..

وهذا يماثل أيضًا ما وقع لأهل " حرَّان " - عبدة النجوم - لمَّا أصرُّوا على البقاء على ما هم عليه من الكفر؛ فأجدب اللهُ أرضَهم، وأذهب ما كانت تخرجه لهم - بأمره - من خير الزروع والثمار والنباتات!!..
وتأمل معي - على الجانب الآخر - جزاء الطائعين المجاهدين في الله ولله .. :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) } [الصف: ١٠ - ١٣]!!..

وانظر معي إلى أيِّ مدى أوصل الله سقف الجهاد في سبيله للمؤمنين.. :{ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) } [التوبة: ١١١]!!..
وفي الإخبات والخشوع لله؛ وما أعدَّ الله لعباده المخبتين إليه والخاشعين له.. اخترت لك من سورة هود:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) } [هود: ٢٣] !!..
ومن الأحاديث القدسية عن ربِّ العزَّة؛ اخترت لك ما يوضح لنا طريق التقرب إلى الله عز وجل؛ يقول لنا سبحانه وتعالى: ♂يا ابن آدم.. تفرَّغ لعبادتي؛ أملأ صدرك غنىً، وأسُدُّ فقرك، وإلاَّ تفعل ملأتُ يديك شُغلاً، ولم أسدّ فقرك▬.

وفي الحديث الآخر يقول جل شأنه: ♂أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيْرٍ منهم، وإن تقرب إليَّ بشبرٍ تقربتُ إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً▬!!..

سبحان الله!!.. هل يحق لنا التسويف بعد هذا الإغراء الواضح الجليّ!!.. من ربِّنا العليّ القدير!!..

وفي حديث آخر يقول سبحانه وتعالى علوًا لامنتهى له: ♂أعددتُ لعبادىَ الصالحين مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعت، ولا خطر على قلب بشر▬.. وينبهنا الرسول الحبيب إلى ما جاء في القرآن ما يؤيد ذلك فيقول: اقرؤوا:{ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) } [السجـدة: ١٦ - ١٧] !!.

وفي حديث آخر يقول سبحانه وتعالى: ♂من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحِبَّه؛ فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبْصِر به، ويدَه التي يبطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإنْ سألني لأُعطِيَنَّه، ولإن استعاذني لأُعيذَنَّه، وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نَفْس عبدِىَ المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءتَه▬. !!.. سبحان الله!! هل بعد هذا الفضل من فضل؟!!.

وفي المقابل - للمتغطرسين المتكبرين المتجبرين - يقول سبحانه وتعالى محذِّرًا: ♂الكبرياءُ رِدائي والعظَمةُ إزاري؛ فمن نازعني واحدًا منهما قذفتُه في النار▬.

ينبهنا سبحانه وتعالى إلى أن يكون لجوؤنا إليه وحده، وأعمالنا جميعها له وحده، وابتغاء مرضاته وحده؛ لا سمعة ولا رياءً ولا طاعةً لأيٍّ مِنْ خَلْقه سواه؛ أو إشراك غيره معه طاعة وإرضاءً؛ فيقول جلَّ مِن قائل: ♂أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه غيري؛ تركته وشركه▬.. فهل مِن ذي بصيرةٍ يتبصَّر ما في هذا الحديث من المعنى؟!!.. ويلبي أوامر المولى!!.

ويذَكرنا مولانا جلَّ شأنُه بالفريقين من الناس.. وكيف يكون حال كلِّ فريق عند مفارقته الحياة الدنيا في طريقه إلى الحياة الآخرة مرورًا بعالم البرزخ؛ فيقول: ♂إذا أحبَّ عبدي لقائي؛ أحببْتُ لقاءه، وإذا كَرِه لقائي كرِهتُ لقاءه▬.. فانظر!!.. من أيِّ الفريقين تحب أن تكون.. يرحمني ويرحمك الله!!.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة؛ اخترتُ لك؛ بادئًا بصحيح مسلم..

عن جابر بن عبد الله قال: أتى النبيَّ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: ♂من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار▬.

وفي حديث آخر عن فضل المواظبة على ذكر الله (سبحانه وتعالى) من بعض حديث؛ قال ◘ : ♂...

سبق المُفَرِّدون▬. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: ♂الذاكرون الله كثيراً، والذاكرات▬.

ومن صحيح البخاري أقدم لك الآتي:

♂من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمَه الله على النار▬.

♂لغدوةٌ في سبيل الله أو روْحةٌ خيْرٌ من الدنيا وما فيها▬.

* * *

الخاتمــة

أخي العزيز:

هذا ما وفقني وهداني إليه ربي سبحانه وتعالى، وأرجو الله العزيز الحكيم أن أكون قد أوصلته إليك في سياقٍ وصورةٍ ترضي الله ورسوله.. وإلى لقاءٍ قادمٍ إن شاء الله.. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

حسن عـابــد

* * *


المراجــع

القرآن العظيم.

تفسير القرآن العظيم / ابن كثير/ المكتبة التوفيقية / القاهرة.

أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير / أبو بكر جابر الجزائري / مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة.

صفوة التفاسير / الشيخ محمد علي الصابوني / دار الصابوني/ مدينة نصر / القاهرة 5 - من تسجيلات خواطر الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي.

الأحاديث القدسية / مكتبة الدعوة الإسلامية / المطبعة العربية الحديثة / المنطقة الصناعية / العباسية / القاهرة.

التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح " مختصر صحيح البخاري " / تحقيق عماد عامر / دار الحديث / القاهرة.

مختصر صحيح مسلم / تحقيق عصام الدين الصبابطي /

دار الحديث / القاهرة.

قصص القرآن / ط13 / مكتبة دار التراث / ش

. الجمهورية / القاهرة

قصص الحيوان في القرآن / أحمد بهجت / مطابع المختار الإسلامي / دار السلام / القاهرة.

الأشعار / من نظم المؤلف / حسن عابد.

* * *

السيـرة الذاتيـة

الإســم:

حـسـن مـحـمـد صـبـري عـمـر عـابـــد

الـشهـرة:

حـســـن عــابـــد

الميـــلاد:

1943/11/28 م (نقيطة - قسم أول المنصورة - دقهلية).

الدرجة العلمية:

دبــلــوم الـدراسـات الـعـلـيـا في الـتـــربــيـة 1974 م - جامعة الزقازيق.

العمـــــل:

عـمــل بـالـتـعـليم، وتدرج في عمله حتى أحيل إلى المعاش على درجة مدير عام.

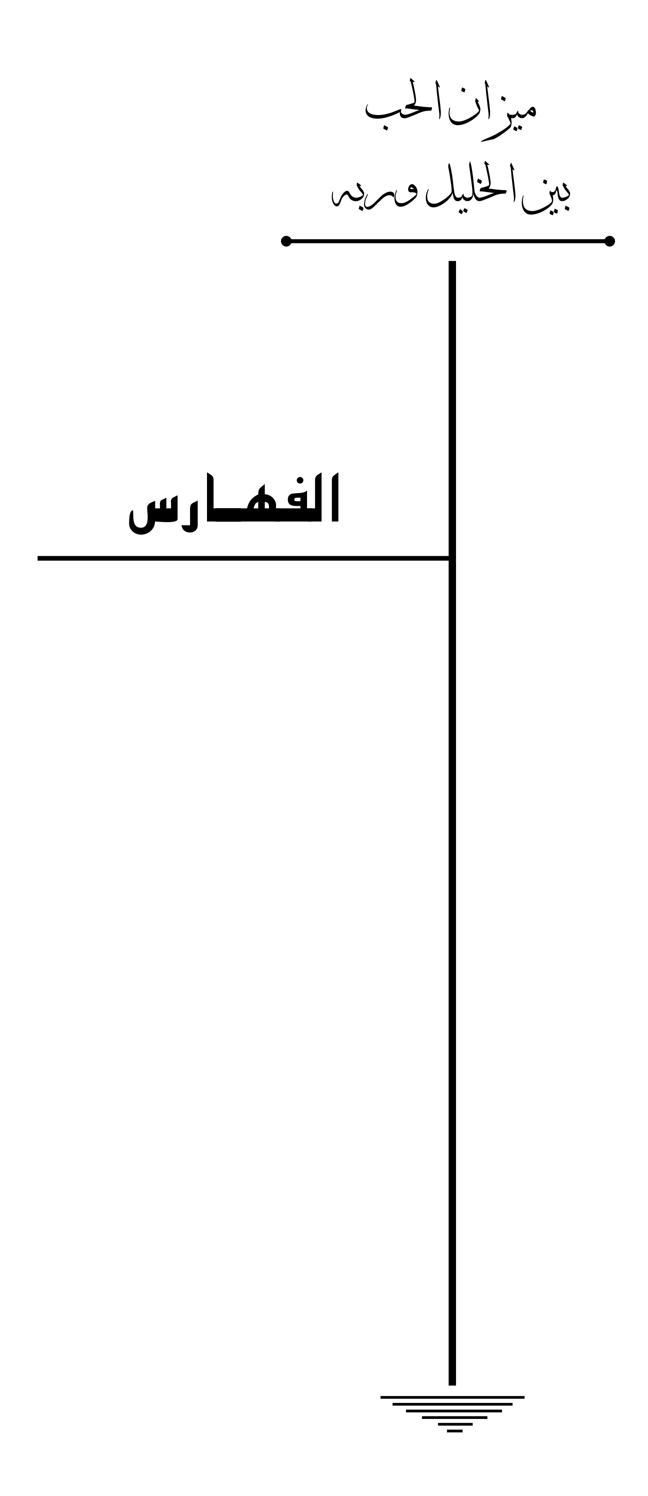
الإقـــامـة:

محافظة الـشـرقــيـة - هـهـيا - منزل 124 شارع مصطفى كامل - بجوار " كوبانية شل ".

* * *

ميزان الحب

بين الخليل وربه



الفهارس

فهـرس الأشعـار

* * *

فهرس الموضوعات